

الْعُلَمَاءُ وَالْعُزْلَابُ

الَّذِينَ آثَرُوا الْعِلْمَ عَلَى الزَّوْجِ

تَأَلَّفَ
عَبْدُ الْفَتْاحِ أَبُو غَدَّةَ

الْمُتَأَلِّفُ
مَكْتَبُ الطَّبَوَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

حلب - باب الحديد - مكتبة النهضة - هاتف ٣٥٢٩١

بيروت - ص . ب ٦٣٤٧ هاتف ٢٢٥٢٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعُلَمَاءُ وَالْعُزَلَاءُ
الَّذِينَ آثَرُوا الْعِلْمَ عَلَى الزَّوْجِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

التقدمة

الحمد لله الذي جعل الزواج سنة من سنن الإسلام ، وحض عليه ، ونذّب إليه ، وأمر بتحصيل العلم والازدياد منه ، وفَضَّلَ به بعض الناس على بعض ، ورفع مقامهم لديه ، فقال في كتابه المبين : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ . و﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . و﴿ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد البشير النذير ، والسراج المنير ، الذي بعثه الله للعالمين أحسن أسوة ، وعلى آله وصحبه الذين كانوا من بعده للناس أفضل قدوة .

وبعد فهذا موضوع طريف ، ومبحث مُنيّف ، تحدّث فيه عن العلماء العُزّاب ، الذين آثروا العلم على الزواج ، لم أقف على من دَوّن فيه شيئاً من قبل ، فرأيت أن أكتب فيه هذه الكلمات ، وأجمع فيه هذه الصفحات ، وسمّيته : « العلماء العُزّاب الذين آثروا العلم على الزواج » .

اقتصرت فيه على ذكر أكابر أئمة العلم والدين ، من المفسرين ، والقراء ، والمحدّثين ، والفقهاء ، والقضاة ، والمفتين ، والأدباء ، والمؤرّخين ،

والنحاة ، واللغويين ، والزُّهَّاد ، والعُباد ، ممن عُرف فضلهم ، واشتهر علمهم ، ووهَّبوا حياتهم كُلِّها للعلم ، وعاشوا له عُزَّاباً متفرغين ، وحرَموا أنفسهم من أعلى مُتَعِ الحياة المشروعة : مُتَعَةِ الزَّوْاجِ والنَّسْلِ والأولاد ، بُغْيَةَ الزَّيْدِ من العلم وخدمة الدين ونفع المسلمين .

وأردتُ من جَمْعِ هذه الصفحات ، وكتابة هذه الكلمات ، أن يُدْرِكَ شَبَابُنَا اليوم : غلاء العلم عند الآباء والأجداد ، وشِدَّةَ تَعَلُّقِهِمْ به وفَنَائِهِمْ فيه ، وعَظِيمَ إِثَارِهِمْ له على ما سِوَاهُ من أنسِ الحياة وتلبية الاحتياج الفطري ، فَيَعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ ، وَيَقْدِرُوا لَهُمْ قَدْرَهُمْ ، وَيَتَبَيَّنُوا قِيَمَةَ العلم عند أسلافهم المتقدمين ، فَتَبَّارَى فِيهِ هِمَمُهُمْ ، وَتَنَافَسَ فِي تَحْصِيلِهِ عَزَائِمُهُمْ ، فَيُعِيدَ الْأَحْفَادُ أَمْجَادَ الْأَجْدَادِ ، وَيَكُونَ مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ لِلْإِنْسَانِيَةِ وَالنَّاسِ جَمِيعاً .

وقدَّمْتُ لهذا الموضوع بمَقْدَمَةٍ تَتَضَمَّنُ أقوالَ العلماءِ والفقهاءِ في حُكْمِ تَعَزُّبِ هَؤُلَاءِ ، فَإِنَّ عَزْوَ بَنَتِهِمْ مَدْعَاةٌ اسْتِغْرَابٍ وَتَسَاوُلٍ عِنْدَ كُلِّ مَنْ وَقَفَ عَلَيْهَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُعَرَفَ مُسَوِّغَاتُهَا عِنْدَهُمْ .

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ مِنِّي هَذَا الْجُهْدَ ، وَيَذْخِرَهُ لِي فِي جِرْزِ الْقَبُولِ عِنْدَهُ ، وَيَنْفَعَ بِهِ كُلَّ مُسْتَفِيدٍ ، وَأَنْ يُغْدِقَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ شَائِبَ الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، وَيُعَوِّضَهُمْ عَمَّا آثَرُوا بِهِ وَحَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهُ أَفْضَلَ مَا عِنْدَهُ فِي فَرَادَيْسِ الْجَنَّةِ ، وَيَجْمَعَنَا مَعَهُمْ فِي مَقْعَدِ الصَّدَقِ لَدَيْهِ ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ ، وَالْمُنْعِمُ بِهِ سُبْحَانَهُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وكتبه

في مدينة تَلْسَا من أمريكا الشمالية صباح الأحد ٢٨ من رجب سنة ١٤٠١ عبد الفتاح أبو غدة

مقدمة

حول غزوبة هؤلاء العلماء الكبار

الزَّوْجُ في الإسلام مرغَّب فيه أتمَّ الترغيب ، ومحضَّوْض عليه أكدَّ الحَضُّ ، إلى جانب أنه أمرٌ فطريٌّ مركزٌ في الطبيعة الإنسانية ، يَسعى الإنسانُ إليه بدافعِ الفطرة ، وهو شَطْرُ هامٍّ كبيرٍ من الحاجةِ الأصليةِ في هذه الحياة ، محقِّقٌ لاكمالِ الذات ، وإنشاءِ الذرية ، وبقاءِ النسل والنوعِ الإنساني ، وعمارةِ الكون .

وقد أمرَ الشرعُ الحنيفُ به أمراً أكيداً لمن خَشِيَ العَنَتَ والزنى ، وعَدَّه بعضُ الأئمةِ الفقهاء من قسمِ العبادات ، لما يترتبُ عليه من استمرارِ النسلِ الصالحِ في الوجود ، وتلقِّيهِ الإسلامَ عن الآباء ، وتبليغِهِ إلى الأبناء ، وهكذا حتى يَرِثَ اللَّهُ الأرضَ ومن عليها ، ولَمَّا لَهُ أيضاً من آثار طيبة على سلوكِ الإنسانِ في طهره وعفافه ، وكمالِ دينه واستقرارِ نفسه ، وسلامةِ خواطره ، فإنَّ غريزةَ الشهوةِ إذا استيقَظَتْ في الإنسانِ العَزَبُ ، شَتَّتَتْ عليه الفكرَ والرأي ، وأقلَقَتْ منه العينَ والنَّفْسَ ، وقد تُرَحِّزُهُ عن الجادةِ والاستقامة ، وتَهْوِي به إلى السقوطِ في هُوَّةِ الإهانةِ والهلاكِ^(١) .

(١) نقل الحافظ المرتضى الزَّيْدِي في كتابه « تاج العروس : شرح القاموس » ٥ : ٢٦٥ ، في مادة (نعظ) ، عن التابعي الجليل العابد الزاهد أبي مسلم الخَوْلَانِي الشامي ، الذي كان يُلَقَّبُ : حَكِيمَ الأمة ، أنه قال رحمه الله تعالى : « يا معشرَ خَوْلَانِ ، أنكحوا نساءكم وأَياماكم ، فَإِنَّ النُّعْظَ - وهو شدةُ تَوَقَّانِ النفسِ للزَّكَاحِ - أمرٌ عارمٌ أي أمرٌ شديد ، فَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّةً ، واعلموا أنه ليسَ لِمُنْعِظٍ رأي » . =

فلذا كان الزواج - إلى جانب أنه مُتعة مشروعة - أمراً أساسياً وحاجةً أصليةً من حاجات الإنسان في الحياة ، يَصْعُبُ عليه التخلي عنها إلا لشوقٍ غلابٍ مُحْرِقٍ ، أو لتعلُّقٍ شديدٍ بعزیزٍ غالٍ على النفس جداً ، يَفوقُ تعلُّقها بالزواج ، ويزيدُ عليه تملُّكاً للقلب واستيلاءً على الخاطر ، مثل طلب العلم في بعض العلماء ، والقيام بالجهد عند بعض المجاهدين ، وتحصيل عُليا الرغائب لدى ذوي النفوس الطمّاحة السَّماء .

ومن السهل أن ندرك أن التبتل^(١) والانقطاع عن الزواج اختياراً : شِدَّةٌ من أكبر الشدائد في حياة الإنسان العالم ، يَفْقِدُ بها الأنسَ الروحي ، والسُّكُونُ النفسي ، وَيَتَحَمَّلُ معها مَشاقَّ العُزوبة في شؤون الطعام والشراب والنظافة وخدمة البيت والمسكن ، ويُحَرِّمُ بسببها من رعاية المرأة وحنانها عند نزول الأمراض والأسقام عليه ، وفي وقت حلول الشيخوخة ومتاعبها لديه ، وهذه شدائد متراكمة ، وَمَشاقَّ متعاظمة ، لا يَتَحَمَّلُها إلا من رأى الصبر عليها ، أهونَ عليه من فَقْدِ الازدياد من العلم وتحصيله وبُتَّه ، فآثَر ما يراه له

= انتهى . والمُنْعِظُ : من اشتدَّ تَوَقَّانُ نَفْسِهِ لِلنِّكَاحِ .

وهذا كلامٌ وجيهٌ للغاية ، فإنَّ الرأْيَ يَضَعُفُ وَيَتَشَتَّتُ بِأَقْلٍ من هذا ، ومن الكلام المأثور الذي نقله ابن قتيبة في « غريب الحديث » ٣ : ٧٤٩ ، والزمخشري في « الفائق في غريب الحديث » ١ : ٣٠٠ ، وابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث والأثر » ١ : ٣٧٨ و ٤١١ و ٤١٦ : « لا رأي لحاقن ولا حاقب ولا حازق » .

والحاقِنُ : الذي حَبَسَ بولهُ . والحاقِبُ : الذي حَبَسَ غائطهُ . والحازِقُ : الذي حَزَقَ قَدَمَهُ أي عَصَرَهَا وَضَغَطَهَا بلبسه الحذاء الضيق . فإذا كان هؤلاء لا رأيَ لهم ، فمن بابِ أولى : لا رأيَ لِمُنْعِظٍ ، وهو من اشتدَّ تَوَقَّانُ نَفْسِهِ لِلنِّكَاحِ ، لأنه قَلَّتْ نَفْساً وَقَلْباً وَبُتَّاً .

(١) يقال في اللغة : تَبَتَّلَ فلان إذا انقطع عن الزواج وتركه زُهْداً فيه . ومثله : تَأَبَّلَ فلان . . . ، قال الزمخشري في « أساس البلاغة » في (بتل) : « وقيل لمريم عليها السلام : العُذراءُ التَّوَلُّ ، لانقطاعها عن الأزواج ، ثم قيل لفاطمة رضي الله عنها : التَّوَلُّ ، تشبيهاً لها بمريم في المنزلة عند الله تعالى » .

أَغْنَمَ وَأَعْظَمَ ، على ما يراه له الذُّ وَأَنْعَمَ ، كَشَانِ الْعُلَمَاءِ الْعُزَابِ الَّذِينَ سَأَذْكُرُ
أَخْبَارَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مِنْ أَسَاطِينِ الْعِلْمِ الْكِبَارِ .

وَقَبْلَ أَنْ أَسُوِّقَ تِلْكَ الْأَخْبَارَ ، أَسْتَحْسِنُ أَنْ أَعْرُضَ إِلَى بَحْثِ الْمَسْوُوعِ
الَّذِي يَسْبِيهِ عَزَبَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الْأَثَمَةُ عَنِ الزَّوْجِ إِلَى الْعُزْوَةِ ، مَعَ عِلْمِهِمْ
بِأَحْكَامِ الزَّوْجِ وَفَضْلِهِ ، وَمَخَاطِرِ الْعُزْوَةِ وَمَتَاعِهَا ، وَخُصُوصاً أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ نَصٌّ
صَحِيحٌ عَنِ الشَّارِعِ يُشْجَعُ عَلَى الْعُزْوَةِ^(١) ، فَمَا الَّذِي حَدَا بِهِمْ إِلَى تَرْكِ
الزَّوْجِ ؟ مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَجْهَلُونَ أَحْكَامَ النِّكَاحِ وَالْمَرْغَبَاتِ فِيهِ . بَلِ الْفُقَهَاءُ مِنْهُمْ
قَرَّرُوها فِي كُتُبِهِمْ وَمَوْلاَفَاتِهِمْ .

وَالْجَوَابُ عَنْ حَالِهِمْ هَذِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهَا مَسَلَكُ شَخْصِي فَرْدِي ،
اخْتَارُوهُ لِنَفْسِهِمْ ، مَا يَزُوُّوا فِيهِ بِبَصِيرَتِهِمْ الْخَاصَّةِ بَيْنَ خَيْرِ الزَّوْجِ وَخَيْرِ الْعِلْمِ
الَّذِي يَقُومُونَ بِهِ ، فَرَجَحَ لَدَيْهِمْ خَيْرُ الْعِلْمِ عَلَى خَيْرِ الزَّوْجِ لَهُمْ ، فَقَدَّمُوا
مَطْلُوباً عَلَى مَطْلُوبٍ ، وَلَمْ يَدْعُوا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِلَى الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي هَذَا
الْمَسَلَكِ ، وَلَا قَالُوا لِلنَّاسِ : التَّبَتُّلُ لِلْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الزَّوْجِ ، وَلَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ

(١) قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةُ فِي « الْمَنَارِ الْمُنِيفِ فِي الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ » ص
١٢٧ « أَحَادِيثُ مَذْحِ الْعُزْوَةِ كُلُّهَا بَاطِلٌ » . وَقَالَ الْحَافِظُ السَّخَاوِيُّ فِي « الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ
فِي بَيَانِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَشْتَهَرَةِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ » ص ٢٠٣ « حَدِيثٌ : خَيْرُكُمْ فِي رَأْسِ
الْمَشِينِ الْخَفِيفُ الْحَاذِ - وَيُرْوَى : خَفِيفُ الْحَاذِ - ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا خَفِيفُ
الْحَاذِ ؟ قَالَ : مَنْ لَا أَهْلَ لَهُ ، وَلَا مَالٍ . رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى فِي « مُسْنَدِهِ » مِنْ حَدِيثِ رِوَادِ بْنِ
الْجُرَّاحِ ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ رَبِيعٍ ، عَنْ حُدَيْفَةَ مَرْفُوعاً ، وَعِلَّتَهُ رِوَادُ ،
وَلِذَا قَالَ الْخَلِيلِيُّ : ضَعُفَ الْحُقَافُ فِيهِ وَخَطُؤُهُ ، انْتَهَى . فَإِنَّ صَحَّ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى
جَوَازِ التَّرَهُّبِ أَيَّامَ الْفَتَنِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ كُلُّهَا وَاهِيَةٌ ، مِنْهَا ... وَمِنْهَا ...
وَمِنْهَا ... » .

وَالْحَاذِ بِتَخْفِيفِ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ : الظُّهْرُ ، وَأُرِيدُ بِخَفْفَةِ الْحَاذِ هُنَا مَجَازاً : خِفَّةُ الْمَالِ
وَالْعِيَالِ . وَجَاءَ تَفْسِيرُ الْحَاذِ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ الذَّهَبِيِّ فِي « مِيزَانِ الْاِعْتِدَالِ » ٢ : « بَلْفِظَ
» قَالَ : مَنْ لَا أَهْلَ لَهُ ، وَلَا وَلَدَ » .

. أفضل مما أنتم عليه .

ولا ذهبوا في ترك الزواج مذهبَ بعض الحكماء والفلاسفة ، القائلين بأن إيجاد الولد جنايةً عليه ! قال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ٣٤ ، في ترجمة أبي العلاء المَعْرِي (أحمد بن عبد الله) الشاعر اللغوي الفيلسوف المشهور : « وبلغني أنه أوصى أن يُكْتَبَ على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبي عليّ وما جَنِيْتُ على أحد
وهذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فانهم يقولون : إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات . انتهى .

حاشاهم من هذا كله ، وإنما اختاروا ترك الزواج لأنفسهم اختياراً فردياً ، ووضحت لهم السلامة من غوائل العزوبة وشروطها ، بما حفظهم الله تعالى به من التقوى والإيمان والعلم .

وما عَزَبَ بهم عن الزواج المركوز في الفطرة ، إلى العزوبة التي لا تُجَهَلُ مصائبها ومتاعبها ، إلا الشوق المتزايد للعلم الذي اشتغلت هممهم به تعلقاً وحباً وتحصيلاً ، وجمعاً ونشراً وتدويناً ، حتى غدا العلمُ منهم بمنزلة الروح من الجسد ، والماء من العود الأخضر ، والهواء من حياة الإنسان ، لا يستطيعون له فراقاً ، ولا يطبقون التنازل عن تحصيل أدنى قسطٍ منه يُمكنهم تحصيله ، فصار العلمُ منهم بموقع الغذاء والدواء جميعاً .

ورأوا الزواج - على خيره وفضله - سبباً شاغلاً كبيراً عن تحصيل هذا المطلب الشريف المُنيف ، وقيداً معوقاً لهم عن التفاعل والاحتراق بالعلم والتحصيل الحبيب العزيز ، فآثروا الخير الأعم على حظ النفس الخاص بهم في الجملة ؛ اجتهداً منهم أن ذلك أغنمَ لهم تحصيلاً ، وأفضلَ عليهم للازدياد من رضوان الله سبيلاً .

وقد روى الإمام أحمد في «المسند» ٦ : ٤٠٩ ، والترمذي في «سننه» ٣ : ٢١٢ في أوائل (أبواب البر والصلة) ، بسند فيه انقطاع ، عن الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ خرج مُحْتَضِئاً أَحَدَ ابْنَيْ ابْتِهِ ، وهو يقول : « والله إنكم لتُبْخُلُونَ وتُجَبِّنُونَ وتُجْهَلُونَ ، وإنكم لمن رِيحَانِ الله » .

وجاء في «المستدرک» للحاكم ٣ : ٢٩٦ و«مجمع الزوائد» للهيتمي ٨ : ١٥٥ عن الأسود بن خلف رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه أَخَذَ حَسَنًا فَقَبَّلَهُ ، ثم أَقْبَلَ عليهم فقال : إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ مَجْبَنَةٌ . رواه البزار ، ورجاله ثقات . انتهى . ولفظ رواية الحاكم في «المستدرک» : « إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ » .

قال الزمخشري في «الفائق» ١ : ١٨٥ «معناه أن الولد يُوقَع أباه في البُخْل ، إِبْقَاءَ عَلَى مَالِهِ لَهُ ، وفي الجهل ، شُغْلًا بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ ، وفي الجُبْنِ ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يُقْتَلَ فَيُضَيِّعَ وَلَدَهُ بَعْدَهُ ، - وفي الحُزْنِ ، إِذْ يَحْزَنُ لِأَمْرِهِ وَشَأْنِهِ - . وقوله : (وإنكم لمن رِيحَانِ الله) يعني أنهم يُشْمُونَ وَيُقَبَّلُونَ ، فهم من جملة الرياحين التي أُنْبَتَهَا اللهُ » انتهى .

وقد صَحَّ عَنْ سَيِّدِنَا عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَوْلُهُ : تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . علَّقه البخاري جازماً به في «صحيحه» ١ : ١٥١ ، في كتاب العلم ، في (باب الاغتباط في العلم والحكمة) . وأخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي في «الشعب» وغيرها ، عن طريق محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس ، قال : قال عمر ، فذكره ، وإسناده صحيح ، قاله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١ : ١٥١ والسخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ١٥٨ .

وفي «القاموس» في (سود) : «التسودُّ : التزوُّجُ» . قال شارحُه المرتضى الزَّيْلَدِيُّ في «تاج العروس» ٢ : ٣٨٥ عَقِبَهُ : «وفي حديث عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه : تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . قال شَمِر : معناه تَعَلَّمُوا الفقه قَبْلَ أَنْ تُزَوِّجُوا ، فتصيروا أربابَ بيوت ، فَتَشْغَلُوا بالزواج عن العلم ، من قولهم : استَادَ الرجلُ إذا تزَوَّجَ في سَادَةِ . انتهى كلام الزبيدي .

وهذا الذي قال شَمِرُ بعضُ ما يَصْدُقُ عليه قولُ سيدنا عمر ، فقد فسَّرَ أكثرُ العلماء (التَّسْوَدَ) في قول عمر بالرياسة ، ومنهم أبو عُبَيْدٍ في « غريب الحديث » ٣ : ٣٦٩ ، فقال : « يقول : تَعَلَّمُوا العلم ما دمتُم صغارا ، قبل أن تصيروا سَادَةً رؤساءَ منظورا إليكم ، فان لم تَعَلَّمُوا قَبْلَ ذلك استحييتُم أن تَعَلَّمُوهُ بعدَ الكِبَرِ ، فبقيتُم جهالاً تأخذونه من الأصاغر ، فيُزري ذلك بكم » . انتهى .

ونَقَلَ الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » تفسيرَ أبي عُبَيْدٍ هذا وأقره ، ثم قال : « وفسَّره شَمِرُ اللغوي بالتزويج ، فانه إذا تزَوَّجَ صار سيدَ أهله ، ولا سيما إذا وُلِدَ له . ولا وجه لمن خَصَّ قول عمر بالتزويج ، لأن السيادة أعم منه ، فانها قد تكون بالتزويج ، وقد تكون بغيره من الأمور الشاغلة لأصحابها عن الاشتغال بالعلم » . انتهى .

فاستُفيد من أحد التفسيرين لقول سيدنا عمر ، أَنَّ الزواجَ مَشْغَلَةٌ عن العلم ولا ريب .

قال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى ، في كتابه « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » : وَيُسْتَحَبُّ للطالب أن يكون عَزَباً ما أمكنه ، لثَلَا يَقْطَعَهُ الاشتغالُ بحقوق الزوجية وطلبُ المعيشة عن إكمالِ الطلب . وقال سفيان الثوري : من تزَوَّجَ فَقَدْ رَكِبَ البحرَ ، فان وُلِدَ له ولد فقد كَسِرَ به - المركب - ! وبالجملة : فَتَرُكُ التَزَوُّجِ لغير المحتاج إليه أو القادرِ عليه ، وَلَا سيما للطالب الذي رأسُ ماله جَمْعُ الخاطر ، وإجمامُ القلب ، واشتغالُ الفكر - أولى - . انتهى من كتاب « تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم

والمتعلم « للقاضي بدر الدين ابن جماعة الحَمَوِي ثم المصري ص ٧٢ .

وقد تحدّث الإمام ابن الجوزي في كتابه العُجَاب : « صيد الخاطر » ص ١٧٧ ، في الفصل ١٢١ ، عما يَحْتَاج إليه المتعلم لتحصيل العلم ، وعن أفضل وسائل الحفظ ، وعن أفضل الأوقات ، والأماكن ، والأحوال ، للحفظ ، وعن أفضل ما يُحفظ ، ثم قال : « وأختارُ للمبتدئ في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن ، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تَمَّتْ له أربعون سنة ، وهذا لأجل جَمْع الهَمِّ - أي للعلم - . انتهى .

ومصادقاً لما أشار إليه الخطيبُ البغدادي والإمامُ ابن الجوزي ، فقد تبرّم غيرُ واحد من العلماء المحترقين بالعلم ، بزواجهم السعيد ، لِمَا فات عليهم به من ألوان العلم ولَذَاذَةِ العبادة التي كانوا عليها قبل الزواج ، فأروه ابتلاءً ورَزِيَّةً !

جاء في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ٨٢٠ ، في ترجمة الإمام الفقيه الحافظ الكبير الرُّحَال (ابن زياد النيسابوري) ما يلي : « الحافظُ المَجُودُ العلامة أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل النيسابوري ، الفقيه الشافعي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ٢٣٨ ، ومات سنة ٣٢٤ .

قال الحاكم : كان إمامَ عصره من الشافعية بالعراق ، ومن أحفظِ الناسِ للفقهيات واختلافِ الصحابة . وقال الدارقطني : ما رأيتُ أحفظَ من ابن زياد ، كان يَعْرِفُ زياداتِ الألفاظ في المتن ، ولما قَعَدَ للتحديث قالوا : حدِّثْ ، قال : بل سَلُّوا أنتم ، فسُئِلَ عن أحاديث فاجاب فيها وأملأها .

قال يوسف القَوَّاس : سمعتُ أبا بكر النيسابوري يقول^(١) : تَعْرِفُ من

(١) وقع في « تذكرة الحفاظ » هكذا (سمعتُ أبا زكريا النيسابوري) . والتصويب من « المنتظم » لابن الجوزي ٦ : ٢٨٧ ، و « العيَر » للذهبي ٢ : ٢٠٢ ، وعبارتهما « قال =

قام أربعين سنة لم يَنَمْ الليلَ ، وَيَتَقَوَّتْ كُلَّ يومٍ بخمسةِ حَبَّاتٍ ، يُصَلِّيُ صلاةَ الغداةِ على طهارةِ العشاءِ الآخرةِ ؟ ثم قال : أنا هو ، وهذا كله قبل أن أعرف أم عبد الرحمن ، أيش أقول لمن رَوَّجني ؟ ! ثم قال : ما أرادَ إلا الخيرَ . انتهى .

ولا يُمكنُ أحداً منا أن يُنكَرَ أن العَلاقَ إذا كَثُرَتْ شَغَلَتْ عن العلم وتحصيله . وعلاقَ الزَّواجِ والزَّوجَةِ والأولادِ وما إليها من أقوى الشواغل إن لم نقل : من القواطع عن العلم عند كثير من الناس ، حتى قال الإمام بِشْرُ الحافي الكلمةَ المشهورة في هذا المعنى : « ضاع العلمُ في أفخاذِ النساءِ » ، كما في كتاب « المصنوع في معرفة الحديث الموضوع » للعلامة علي القاري ص ١٢٠ .

وتروى هذه الكلمة بلفظ « ذُبِحَ العلمُ بين أفخاذِ النساءِ » . إشارةً إلى أن كثيراً من العلماء ، وَقَفَ بهم الزَّواجُ وما يتصل به من مُتَعِهِ أو مسؤولياته ومشاغله بالأولاد وغيرهم ، عن متابعة العلم ، فَضَمَرَ العلمُ لديهم واضمحَل ! ولا شك أن الزَّواجَ قَيْدٌ ثَقِيلٌ بِمسئولياته المادية ، ومسئولياته المعنوية ، وبِالانعطافاتِ التي يُسبِّبُها للانصرافِ عن العلم أوقاتاً كثيرة ، أو إلى الأبد ، كما هو معلوم لكل متزوِّجٍ صاحبِ عِلْمٍ ، يُحِبُّ العلمَ ، ويُتابعه ، ولكل متزوِّجٍ صَرِفَ عن العلم ، وحَرِمَ منه ! .

ومن طريف ما نُقِلَ من التقيدِ بالزَّواجِ : ما حكاه الإمام تقي الدين السبكي في كتابه « ترتيب ثقاتِ العِجْلي » ، في ترجمة أحد أئمة المحدثين الكبار : (مَعْمَرُ بنِ راشدِ البصري) ، الذي كان يَرَحُلُ من بلد

=يوسف القواس : سمعت أبا بكر بن زياد يقول انتهى . وجاء في ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرى » ٣ : ٣١٢ « وكان يقال : إن أبا بكر النيسابوري أقام أربعين سنة لا ينام الليل » .

إلى بلد لِيُنْشَرَ الحديث النبوي ، وَيَجْمَعَ إليه ما لم يكن عنده منه ، فلما حُلَّ في اليَمَن رَغِبَ أَهْلُ تلك الديار أن يَبْقَى عندهم ، لِيَكْسِبُوا من علمه وفضله ، فاختاروا له قَيْدًا منعه به من مغادرتهم ، وكان ذلك القيدُ هو أن زَوْجوه امرأةٌ منهم ، فكانت قَيْدًا له حَبَسَهُ عن الرحلة والعودة إلى الوطن الأول ، فاستمر لديهم الى آخر الحياة .

قال العَجَلِي في ترجمته : « مَعْمَرُ بن راشد ، يكنى أبا عُرْوَةَ ، بصريٌّ سَكَنَ صنعاءَ اليَمَن ، وتزَوَّج بها ، ثقةٌ رجل صالح ، وكان من عقلاء الرجال ، رَوَى عنه ابنُ المبارك ، وَرَحَلَ إليه سفيانُ الثوري ، وَسَمِعَ منه بصنعاء .

ولمَّا دخل صنعاء كرهوا أن يَخْرُجَ من بين أظهرهم ، فقال لهم رجل : قَيِّلُوهُ ، فزَوَّجُوهُ » . فأقام عندهم حتى مات سنة ١٥٣ رحمه الله تعالى .

ومن لطيف ما أُشِيرَ به إلى أن الزواج قَيْدٌ ومسئولياتٌ ثقيلة : قولُ بعض الظرفاء :

إِنَّ ذَيْبًا أَمْسَكُوهُ وَتَمَارَوْا فِي عِقَابِهِ
قال شيخٌ : زَوَّجُوهُ وَدَعُّوهُ فِي عَذَابِهِ

فالزواجُ وما يتصل به وما يَنْشَأُ عنه ويترتبُ عليه : قَيْدٌ لا ريب فيه ، وله مسئوليات تأخُذُ جوانِبَ كبيرةً من حياة الرجل مادِّيًّا ومعنويًّا ، وتَقْطَعُ من فراغه للعلم كثيرًا ، بل قد تَقْطَعُ عن العلم أو الازدياد فيه قطعًا كما شُوهِدَ ذلك في كثير من العلماء الأذكياء ، فلذا آثرَ بعضهم العُزُوبَةَ عليه .

ولقد تعرَّضَ الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى ، إلى بحث (مسألة اختيار العُزُوبَةِ على الزواج) في كتابه « إحياء علوم الدين »

٢ : ٢١ - أوائل كتاب النكاح ، وجلاها خير تجلية ، فأورد الآيات والأحاديث والآثار المرغبة في الزواج ، ثم شَرَحَ فوائد الزواج ، ثم شَرَحَ آفاته ، وذكر أنها ثلاثة : الآفة الأولى : العجزُ عن تحصيل المالِ الحلال للمعاش . . . ، والآفة الثانية : القصورُ عن القيام بحقوقِ الزوجة والصبر على أخلاقها واحتمالِ أذاها . . ، ثم قال :

« الآفة الثالثة : أن يكون الأهلُ والولدُ شاغلًا له عن الله تعالى ، وجاذبًا له إلى طلب الدنيا ، وحسنِ تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال ، وادِّخاره لهم ، وطلبِ التفاخر والتكاثر بهم .

وكلُّ ما شغل عن الله تعالى من أهل ومال وولد ، فهو سُؤم على صاحبه . ولستُ أعني بهذا أن يدْعُوهُ إلى محذور ، فإنَّ ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدْعُوهُ إلى التَّعَمُّ بالمباح ، بل إلى الإغراق في مُلاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان في التمتع بهن .

ويُثَوِّرُ من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس ، تستغرق القلب ، فينقضي الليل والنهار ، ولا يتفرَّغُ المرءُ فيهما للتفكير في الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى : من تَعَوَّدَ أفعاذَ النساء لم يجيء منه شيء . وقال أبو سُلَيْمان الداراني رحمه الله تعالى : من تزوَّج فقد رَكَنَ إلى الدنيا . أي يدعوه ذلك إلى الركونِ إلى الدنيا .

فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكمُ على شخصٍ واحد بأنَّ الأفضل له النكاحُ أو العزوبة مطلقاً : قُصُورُ عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل تُتَّخَذُ هذه الفوائد والآفات مُعْتَبَراً - أي مِقْيَاساً - وَمِحْكَاً ، وَيَعْرِضُ المرءُ عليه نفسه :

فإن انتفت في حقِّه الآفاتُ ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخلقٌ حسن ، وجِدُّ في الدِّينِ تامٌ لا يَشْغَلُهُ النكاحُ عن الله تعالى ،

وهو مع ذلك شاب محتاجٌ إلى تسكين الشهوة ، ومنفردٌ يحتاج إلى تدبير المنزل ، والتحصن بالعشيرة ، فلا يُمارى أنَّ النكاح أفضلُ له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد .

فان انتفتت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة أفضلُ له . وإن تقابل الأمران وهو الغالب ، فينبغي أن يُوزن بالميزان القسط حَظُّ تلك الفائدة في الزيادة من دينه ، وحَظُّ تلك الآفة في النقصان منه ، فاذا غلب على الظنُّ رجحانُ أحدهما حُكِمَ به . وأظهرُ الفوائد : الولدُ ، وتسكينُ الشهوة . وأظهرُ الآفاتِ : الحاجةُ إلى كسبِ الحرام ، والاشتغالُ عن الله تعالى .

ثم ضَرَبَ الأمثلة للموازنة بين تفضيل إحدى الحالين على الأخرى... ، ثم قال : « فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ، ويُحكَم بحسبها . ومن أحاط بهذا لم يُشكِل عليه شيء مما نقلنا عن السلف ، من ترغيب في النكاح مرةً ، ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح ... » . انتهى

وفي هذا الذي شَرَحَه وبيَّنه الإمام أبو حامد الغزالي كفايةً ومَقْنَعٌ لتوجيه تعزُّب هؤلاء العُزَّاب ، وأزيدُه بحثاً وإيضاحاً بما قاله الإمام الأصولي الفقيه أبو إسحاق الشاطبي في كتابه « الاعتصام » ١ : ٣٢٨ ، في الفصل العاشر من الباب الخامس ، قال رحمه الله تعالى :

« ويتعلَّق بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مسائل :

المسألة الأولى : أنَّ تحريم الحلال وما أشبه ذلك يُتصوَّر في أوجه :

الأول : التحريمُ الحقيقي ، وهو الواقعُ من الكفار ، كالبَجيرةِ والسَّائبةِ ...

الثاني : أن يكون مجرد ترك لا لغرض ، بل لأن النفس تكرهه بطبيعتها ، أو لا تكرهه حتى تستعمله ، أو لا تجد ثمنه ، أو تشتغل بما هو آكد ، وما أشبه ذلك ، ومنه ترك النبي ﷺ لأكل الضب ، لقوله فيه : « إنه لم يكن بأرض قومي ، فأجذني أعافه » . ولا يسمى مثل هذا تحريماً ، لأن التحريم يستلزم القصد إليه ، وهذا ليس كذلك .

ثم قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى ١ : ٣٣١ « فأن من يلحقه الضرر وقت ما يتناول شيئاً ، يمكنه أن يمسك عنه من غير تحريم ، والتارك لأمر لا يلزم أن يكون محرماً له ، فكم من رجل ترك الطعام الفلاني ، أو النكاح ، لأنه في ذلك الوقت لا يشتهي ، أو لغير ذلك من الأعذار ، حتى إذا زال عذره تناول منه ، وقد ترك النبي ﷺ أكل الضب ، ولم يكن تركه موجباً لتحريمه » .

ثم قال في الفصل الحادي عشر من الباب الخامس ١ : ٣٣٧ « وأما ما ذكره الغزالي وغيره من تفضيل العزلة على المخالطة ، وترجيح العزوبة على اتخاذ أهل عند اعتوار العوارض ، ففيه تفصيل .

وبيأنه أن المطلوبات الشرعية ، لا تخلو أن يكون المكلف قادراً على الإمتثال فيها ، مع سلامته عند العمل لها من وقوعه في منهي عنه ، أو لا

فإن كان قادراً في مجاري العادات ، بحيث لا يعارضه مكروه أو مُحَرَّم ، فلا إشكال في كون الطلب متوجهاً عليه بقدر استطاعته ، على حد ما كان السلف الصالح عليه ، قبل وقوع الفتن .

وإن لم يقدر على ذلك إلا بوقوعه في مكروه أو مُحَرَّم ، ففي بقاء الطلب هنا تفصيل بحسب ما يظهر من كلام الغزالي :

إذ قد يكون المطلوب مندوباً ، لكنه لا يمكنه أن يعمل به إلا بوقوعه في ممنوع ، فالمندوب ساقط عنه بلا إشكال ، كالمندوب للصدقة على المحتاج ، ولا مال بيده إلا مال الغير ، فلا يجوز له العمل بالنذبة ، لأنه يقع بسببه في التصرف في مال الغير بغير إذنه ، وهو لا يجوز ، فهو كالفاقد لما يتصدق به ، وكالقائم على مريضه المشرف على الموت ، أو دفن ميت يخاف تغييره بتركه ، ثم يقوم يصلي نافلةً ، والمتزوج الذي لا يجد إلا مالاً حراماً ، وأشباه ذلك .

وقد يكون المطلوب واجباً ، إلا أن وقوعه فيه يُدخله في مكروه ، وهذا غير مُعتد به ، لأن القيام بالواجب أكد . أو يُدخله في ممنوع ، فهذا الذي يتعارض على الحقيقة ، إلا أن الواجبات ليست على وزانٍ واحد ، كما أن المحرمات كذلك ، فلا بد من الموازنة .
الدكن

فإن ترجح جانب الواجب صار المحرم في حكم العفو ، أو في حكم التلافي إن كان مما تتلافى مفسدته ، وإن ترجح جانب المحرم ، سقط حكم الواجب ، أو طُلِبَ بالتلافي .

وإن تعادلاً في نظر المجتهد ، فهو مجال نظر المجتهدين ، والأولى عند جماعة رعاية جانب المحرم ، لأن دَرَّةَ المفساد أكد من جلب المصالح .

فإذا كانت العزلة مؤديةً إلى السلامة ، فهي الأولى في أزمته الفتن ، والفتن لا تختص بفتن الحروب فقط ، فهي جارية في الجاه والمال وغيرهما من مكتسبات الدنيا ، وضابطها : ما صد عن طاعة الله تعالى . ومثل هذا يجري بين المندوب والمكروه ، وبين المكروهين .

وإن كانت العزلة مؤديةً إلى ترك الجماعات والجماعات، و- إلى-

التعاون على الطاعات ، وأشباه ذلك ، فانها أيضاً سلامة من جهة أخرى ، ويقع التوازن بين المأمورات والمنهيات ، وكذلك النكاح ، إذا أدى إلى العمل بالمعاصي ، ولم يكن في تركه معصية ، كان تركه أولى ، انتهى كلام الشاطبي .

وقال أستاذنا الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله تعالى في كتابه « السيد البدوي » ، وقد ترجم في هذا الكتاب ودرس حياة الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني البدوي المصري ، صاحب الشهرة المستطيرة في الديار المصرية ، المولود سنة ٥٩٦ هـ ، والمتوفى سنة ٦٧٥ هـ رحمه الله تعالى ، الذي قال صاحب « شذرات الذهب » في ترجمته ٥ : ٣٤٥ « ولم يتزوج قط » .

قال شيخنا في كتابه المذكور ص ٢٧ ، وهو يعتذر عن عزوبة الشيخ البدوي ، وعن عزوفه عن الزواج بمن تقدمت إليه لتكون زوجة له ، وهي فاطمة بنت بَري ، ما يلي :

« كانت خِطَّة السيد التي وضعها لنفسه ، هي أن يَخْلَصَ للدعوة ، إنه لا يُحَرِّمُ الزواج ، ولا يُنْفِرُ منه ، إنه لا يُحَرِّمُ حلالاً ، كما لا يُجِلُّ حراماً ، وهو لا يدعو إلى الرهبانية التي تتمثل أوضح ما تتمثل في الامتناع عن الزواج ، كلاً ، فالزواج شريعة الإسلام ، وسنة رسول الله ﷺ .

ولكنه وجد أن العالم الإسلامي في حاجة إلى تفرغ تام ، وأن الدعوة تستغرق عمره ، وأعماراً مع عمره ، فحَزَمَ أمره على التفرغ الكامل للدعوة ، إنه لم يجد القوة التي كانت عند رسول الله ﷺ ، أو عند خيار أصحابه من رجال الدعوة ، والتي مكنتهم من الزواج والدعوة معاً .

وحُبُّ الدعوة وإرادة النهوض بالعالم الإسلامي ، صَرَفَ الكثير من

رجال الإصلاح عن الزواج طَوَّلَ حياتهم ، أو جزءاً كبيراً من حياتهم ، والأمثلة كثيرة على مَجَرَى التاريخ ، ومن أجل ذلك لم يَجِدْ عَرَضُهَا فيما يتعلَّق بالزواج في نفس الشيخ البدوي قبولاً . . . انتهى .

وبعد الفراغ من هذا المبحث الواسع الجامع ، في مسوِّغات العُزُوبَةِ التي وقَّعتْ لكثير من العلماء الكبار المشهورين ، أسوقُ تراجمَ طائفةٍ من هؤلاء الأئمةِ الأعلام ، المقتدى بهم في علوم الدين ، من عصورٍ مختلفة ، ومذاهبٍ متعدِّدة ، من مفسِّرين ، ومحدِّثين ، وفقهاء ، وأصوليين ، ولغويين ، ونحويين ، وأدباء ، ومؤرِّخين ، ومتزهِدين ، لتكون كالنماذج لكثيرٍ سواهم ، من الذين صَبَّروا على شدائدِ العُزُوبَةِ ومَشَاقِهَا ، في سبيلِ تحصيل العلم والازديادِ منه ، فآثَرُوا نَفْعَ غيرهم على لذائذِ أنفُسِهِمْ ، رضي الله عنهم ، وأحسَّنَ إليهم بما أحسنوا للعلم وأهله .

وأوردُ أخبارَهم مُراعياً فيها الترتيبَ الزمني ، من حيث وجودهم ووفياتهم ، ومقتصرأً في بعضها على ما تُذكرُ فيه عُزُوبَتُهُمْ وبعضُ أخبارهم ، ومُطيلأً في بعضها إذا رأيتُ في الترجمة ما يتصلُ بجوانبِ هذا الكتاب ، ويَزِيدُ في معناه ومقصوده ، ولاكشِف أنهم إذ انصرفوا عن الزواج إلى العُزُوبَةِ ، وجَّهوا طاقاتهم لخدمة الإسلام والعلم والدين ، وآثَرُوا بها خِدْمَةَ الشريعة والمسلمين . فقد آثَرُوا على مُتَع أنفُسِهِمْ ، وعَطَّشَ أجسامَهُمْ ، وراحَ أبدانَهُمْ ، رضوانُ الله عليهم .

وقد تَوَخَّيْتُ في اختيار من أترجمُ لهم من (العلماء العُزَّاب) في هذا الكتاب ، أن تكون سيرتُهُمْ مُوجَّهَةٌ مُعَلِّمَةٌ حافِزة ، وأن تكون حياتُهُمْ العِلْمِيَّةُ والسُّلُوكِيَّةُ جَيَّاشَةٌ نَبَاضَةٌ بأنواع الفضائل والمآثر ، تَبَعَّثُ في نفس قارئها الأتساءر والافتدَاء بهم (خلا العُزُوبَةِ) ، وتَطْبِعُ في شخصيتِهِ الخيرَ

وَحُبُّ الْعِلْمِ وَالْإِتِّهَابَ بِهِ ، وَتَشُدُّهُ إِلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى .

وليشهَدَ (طلابُ العلمِ اليوم !) من خلال تراجم أولئك الأئمة ، غلاء العلم ورفَعَتَه وَمَعَزَّتَه عند هؤلاء العلماء الفضلاء الصالحاء النبلاء ، الذين اختاروا جرمانَ أنفسهم من أنسِ الزواجِ وَمُتَعَتِهِ ، ومنفَعَتِهِ ورعايَتِهِ طُولَ حياتهم ، ابتغاءَ أن يزدادوا من العلم وتحصيله ، ومن خِدْمَتِهِ وتبليغِهِ لمن بعدهم ، فآثَرْنَا على حصولِ الزوجةِ والأولادِ ، والنَّسْلِ والذُرِّيَّةِ لهم ، فجزاهم الله عن العلم والدين والإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء ، وأكرمهم في جواره بالْحُورِ الْعِينِ ، مع النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقا .

وقبل الدخول في سِياقة تراجم هؤلاء العُرَّابِ ، أَسْتَحْسِنُ أن أذكر بعض الكلمات اللغوية التي تتعلق بالوصف بالعُزوبة ، استكمالاً للمقام ، فأقول :

يقال سماعاً من العرب ، للرجل : عَزَبٌ وأَعَزَبُ . وللمرأة : عَزَبٌ وعَزَبَةٌ . ويقال قياساً ولم يُسَمَّعْ ، للرجل : عازِبٌ ، وللمرأة : عازِبةٌ وعَزْبَاءُ . وأما ما جرى على الألسنة اليوم ، من قولهم للمرأة : (عَزَبَةٌ) بسكون الزاي ، وللجمع من الرجال : (عُرْبَان) ، فعامياً لا سند له من اللغة^(١) .

(١) ماذةُ (عَزَبٌ) تَدَوُّرُ على ثلاثة معاني : الانفراءُ ، والبُعْدُ ، والتَّخْفِي . والمعنى الملائم للمقام هنا هو : الانفراءُ ، فقد قالوا : كُلُّ مَنْفَرِدٍ عَزَبٌ . وعَزَبَ الرجلُ يَعَزُبُ - من بابِ نَصَرَ - عَزَبَةً وعُزُوبَةً : إذا لم يكن له زوجة ، فهو عازب - على قياس الباب - وعَزَبٌ بفتح الزاي على السَّمَاعِ ، ويُجْمَعُ على عُرَّابٍ بضم العين وتشديد الزاي ، باعتبار بنائه الأصلي القياسي لاسم الفاعل (عازب) من فَعَلَ (عَزَبَ) ، ويُجْمَعُ أيضاً على أَعَزَّابٍ ، باعتبار بنائه الحالي المسموع : (عَزَبَ) .

وامرأةٌ عَزَبٌ وعَزَبَةٌ بفتح الزاي فيهما : لا زوج لها ، ونسوةٌ عَزَبَاتٌ ، ونساءٌ عُرَّابٌ =

= وأَعَزَّبَ : لا أزواجَ لَهُنَّ . وإنه لَعَزَبَ لَزَبٌ ، وإنها لَعَزْبَةٌ لَزْبَةٌ : إِتْبَاع .
وَتَعَزَّبَ الرَّجُلُ : تَرَكَ النِّكَاحَ ، وَتَعَزَّيْتُ الْمَرْأَةُ : تَرَكْتُهُ أَيْضاً . وَتَعَزَّبَ الرَّجُلُ زَمَاناً
ثُمَّ تَزَوَّجَ ، وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ ، أَي طَالَ بَقَاؤُهُمَا فِي الْعَزْوِيَّةِ ثُمَّ تَزَوَّجَا .
وَالْعَزِيبُ وَالْمِعْزَابَةُ : الرَّجُلُ أَوِ الْمَرْأَةُ إِذَا كَانَ عَزْباً . وَيُقَالُ ذَلِكَ أَيْضاً لِمَنْ طَالَتْ
عُزُوْبَتُهُ مِنْهُمَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ فِي الْإِهْلِ مِنْ حَاجَةٍ .
وَالْمِعْزَابَةُ - كَالْمِعْرَفَةِ - وَالْعَازِبَةُ ، وَالْمُعْزَبَةُ : امْرَأَةُ الرَّجُلِ يَأْوِي إِلَيْهَا ، فَتَقُومُ
بِإِصْلَاحِ طَعَامِهِ وَحِفْظِ أَدَاتِهِ . يُقَالُ : عَزَيْتُهُ امْرَأَتُهُ تَعَزَّبُهُ إِذَا قَامَتْ بِأَمْرِهِ . وَيُقَالُ : مَا
لِفُلَانٍ مُعْزَبَةٌ ، وَلَيْسَ لَهُ زَوْجَةٌ تَعَزَّبُهُ أَي تَذِيبُ عُزُوْبَتَهُ وَانْفِرَادَهُ : بِالنِّكَاحِ وَالزَّوْجِ .
وَعَزْبُهُ : أَزَالَةُ عُزُوْبَتِهِ ، وَأَعَزَّبَهُ : جَعَلَهُ عَزْباً ، مِثْلَ مَرُوضَةٍ فِي السُّلْبِ ، وَأَمْرُضَهُ فِي
الْإِبْطِ .

قال أبو حاتم السجستاني : ولا يقال : رجلٌ أعزَّب . قال الأزهرى : وأجازه غيره .
وقياس قول الأزهرى أن يقال : امرأةٌ عَزْبَاءُ ، مِثْلَ أَحْمَرَ وَحُمْرَاءَ . نَقَلَهُ الْفَيْهِي فِي
« الْمَصْبَاحِ الْمُنِيرِ » فِي (عَزَبَ) ، ثُمَّ قَالَ فِي الْفَصْلِ الرَّابِعِ مِنْ فُصُولِ الْخَاتَمَةِ آخِرُ
الْكِتَابِ : « وَعَزَّبَ الرَّجُلُ فَهُوَ أَعَزَّبَ ، وَحَيْثُ كَانَ الْفَاعِلُ عَلَى أَفْعَلٍ لِلْمَذْكَرِ ، فَهُوَ
لِلْمُؤَنَّثِ عَلَى فَعْلَاءَ ، نَحْوُ أَحْمَرَ وَحُمْرَاءَ » . انْتَهَى . وَهَذَا يُفِيدُ جَوَازَ (عَزْبَاءَ) عِنْدَ
الْفَيْهِيِّ .

وجاء ابن الأثير في « النهاية » بكلام مضطرب غير محرر ، فنَقَى (أَعَزَّبَ) ، وَاثْبَتَ
(عَزْبَاءَ) ، فَقَالَ : « وَرَجُلٌ عَزَبٌ ، وَامْرَأَةٌ عَزْبَاءُ ، وَلَا يُقَالُ فِيهِ : أَعَزَّبَ » . انْتَهَى .
قُلْتُ أَمَّا نَفْيُهُ (أَعَزَّبَ) فَقَدْ تَبَعَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ ، وَلَا ضَيْرَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، لَوْلَا ثُبُوتُ
(أَعَزَّبَ) فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » فِي مَوْضِعَيْنِ :

المَوْضِعُ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ فِي (بَابِ تَوَمُّدِ الرِّجَالِ فِي الْمَسْجِدِ) ١ :
٥٣٥ ، رَوَى فِيهِ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ الصَّحِيحِ إِلَى نَافِعٍ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : « أَخْبَرَنِي
عَبْدُ اللَّهِ - أَيِ ابْنِ عُمَرَ - أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ وَهُوَ شَابٌّ أَعَزَّبَ لَا أَهْلَ لَهُ ، فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . »

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » هنا ١ : ٥٣٥ « قَوْلُهُ : أَعَزَّبَ . بِالْمُهْمَلَةِ
وَالزَّايِ ، أَيِ غَيْرِ مَتَزَوَّجٍ . وَالْمَشْهُورُ فِيهِ : عَزَبٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِ الزَّايِ . وَالْأَوَّلُ - أَيِ
أَعَزَّبَ - لُغَةٌ قَلِيلَةٌ ، مَعَ أَنَّ الْقَرَّازَ أَنْكَرَهَا » . انْتَهَى .
قال عبد الفتاح : وَفِي هَذَا الْكَلَامِ غَلَطٌ وَسَبْقُ قَلَمٍ ، وَالصَّوَابُ فِي عِبَارَتِهِ هَكَذَا :
« وَالْمَشْهُورُ فِيهِ عَزَبٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَالزَّايِ . . . »

= وهذا التصويب متعين ليوافق قول الحافظ ابن حجر هنا قوله في كتاب التعبير من «فتح الباري» أيضاً ، في (باب الأخذ على اليمين في النوم) ١٢ : ٤١٨ ، تعليقاً على قول ابن عمر فيه : «وكنْتُ غَلاماً عَزَباً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم» . فقد قال الحافظ ابن حجر نفسه هنا : «العَزْبُ بفتح المهملة والزاي ثم موحدة : من لا زوجة له ، ويقال له : الأَعَزْب بقلبة في الاستعمال» .

وليوافق أيضاً قوله في «هذي الساري مقدمة فتح الباري» ١ : ١١٧ «قوله : عزب بفتح الزاي ، أي لا زَوْجَ له ، ومنه : اشتدَّت علينا العُزْبَةُ ، ورجُلٌ عَزْبٌ وأعزَّبَ بمعنى ، ومنهم من أنكر : أعزَّب» . انتهى .

وقد اغترَّ بخطئه المذكور في قوله : (والمشهور فيه عَزْبٌ بفتح العين وكسر الزاي) بعضُ شراح الحديث ، كصاحب «عون المعبود في شرح سنن أبي داود» ، فضيَّطَ قول ابن عمر في كتاب الطهارة في (باب في طهور الأرض إذا يَسَّت) ١ : ١٤٦ «وكنْتُ فتى شاباً عَزَباً» . بفتح العين وكسر الزاي ! ثم قلَّده الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ! في «سنن أبي داود» في الباب نفسه ١ : ١٥٦ ، فشكَّلَ قول ابن عمر «وكنْتُ فتى شاباً عَزَباً» بفتح الزاي وكسرها ! والكسرُ غلطٌ لا ريب فيه ، فأعرفه واجتنبه .

والموضع الثاني من الموضعين في «صحيح البخاري» ، في كتاب فضائل الصحابة في (باب مناقب عبد الله بن عمر) ٧ : ٨٩ ، وفيه قول ابن عمر : «... وكنْتُ غَلاماً أعزَّب ، وكنْتُ أنام في المسجد ...» .

وهناك حديث ثالث ذكره الزبيدي في «تاج المروس» عند تعليقه على قول أبي حاتم : (ولا تَقُلْ : أعزَّب) . قال الزبيدي : «لكونه غيرَ واردٍ ولا مسموع ، أو - هو - قليلٌ أجازَه غيره ، واستدلَّ بحديث : ما في الجنة أعزَّب» . انتهى .

قلت : هذا الحديث جاء في «صحيح مسلم» ، فروى مسلم في «صحيحه» ١٧ : ١٧٠ ، في أوائل (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ، بسنده الصحيح المتصل إلى محمد بن سيرين : «قال : إما تَقَاخَرُوا ، وإما تذاكروا ، الرجال في الجنة أكثرُ أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أولم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : إن أولَ زُمرَةٍ تَدْخُلُ الجنةَ على صورةِ القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضواءِ كوكبٍ دريٍّ في السماء ، لكل امرئٍ منهم زَوْجَتانِ اثنتان ، يُرى مَخُ سَوْقِهما من وراء اللُّحْم ، وما في الجنة أعزَّب» .

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١٧ : ١٧١ «قوله : (وما في الجنة أعزَّب) ، هكذا في جميع نُسَخ بلادنا : (أعزَّب) بالالف ، وهي لغة ، والمشهور في اللغة (عَزْبٌ) بغير ألف . وتَقَلُّ القاضي - عِيَّاض - أنَّ جميعَ رُؤايتهم رَوَوْه : (وما في الجنة عَزْبٌ) بغير ألف ، إلا العنريُّ فرواه بالالف ، قال القاضي : وليس بشيء . =

= والعَزْبُ من لا زَوْجَةَ له ، والعَزُوبُ البُعْدُ ، وَسُمِّيَ عَزْبًا لِبُعْدِهِ عن النساء . انتهى .
 وَرَوَى حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ هذا : (. . . وما في الجنة أَعَزَبُ) الإمام أحمد في « مسنده »
 ٢ : ٢٣٠ و ٢٤٧ ، باللفظ الذي رواه به مسلم ، وعُلِّقَ عليه شيخنا العلامة أحمد شاكر
 رحمه الله تعالى في طبعته من « المسند » ١٢ : ١٣٦ ، بقوله : « قوله : (أَعَزَبُ) هو
 الذي لا زوجة له ، وأنكر بعض أهل اللغة هذا الحرف بزيادة الهمزة ، والأكثر (عَزَبُ)
 بفتحيتين ، وقد بينا في الاستدراك ٩ : ٢٩٩ صِحَّتَهُ بزيادة الهمزة لثبوتها في الأحاديث
 الصحاح . انتهى .

وَرَوَى الإمامُ أحمدُ أيضاً في « مسنده » ٢ : ٧١ ، حديثَ ابنِ عمر الذي رواه
 البخاري : (. . . كُنْتُ أَعَزَبُ شَاباً أَيْبَتْ في المسجد . . .) ، وعُلِّقَ عليه شيخنا أحمد
 شاكر رحمه الله تعالى في طبعته من « المسند » ٩ : ٢٩٩ ، بقوله :
 « قوله : (أَعَزَبُ) ، الأَعَزَبُ هو العَزْبُ ، الذي لا زوجة له ، وأنكرها ابنُ الأثير في
 « النهاية » ، فقال : « ولا يقال فيه : أَعَزَبُ » . وقال الحافظ في « الفتح » ١ : ٤٤٦ إنها
 « لغة قليلة ، مع أن القَرَّازَ أنكرها » . وفي « لسان العرب » : « ولا يقال : رجلٌ أَعَزَبُ ،
 وأجلزه بعضهم » .

أقول - القائل أحمد شاكر - : وهي صحيحة بثبوتها في الحديث الصحيح ، هنا وفي
 البخاري . انتهى .

ومن أثبت (عَزْباً) لَزِمَهُ إثباتُ (أَعَزَبُ) ، لأنهما من اشتقاقٍ واحد ، ويزيدُ
 (أَعَزَبُ) ثبوتاً بكونه وارداً في الحديث الصحيح كما تقدم .
 وَوَجَّهَ من منع (أَعَزَبُ) - لولا وَرُودُهُ وثبوتُهُ في الحديث - أنْ فَعَلَ (عَزَبَ) لم يَأْتِ
 على وَزْنِ (فَعَلَ) الذي يكون للالْوَانِ والعُيُوبِ ونحوهما ، حتى يَأْتِيَ منه اسمُ الفاعِلِ :
 أَفْعَلٌ وفَعْلَاءٌ ، مثلُ أَحْمَرَ وحمرَاء .

وختلاصة القول في هذا الصَّدَد : يقال سَمَاعاً للرجل : عَزَبٌ وأَعَزَبُ .
 وللمرأة : عَزَبٌ وعَزْبَةٌ . ويقال للرجل - قياساً ولم يُسَمَّعْ - : عَازِبٌ ، وللمرأة : عَازِبَةٌ
 وعَزْبَاءُ . وأما قولُ الناس اليوم للمرأة : (عَزْبَةٌ) بسكون الزاي ، وللجمع من الرجال :
 (عَزْبَان) فعائياً لا سَنَدَ له . والله تعالى أعلم .

رجعتُ في كتابة هذه المادة اللغوية إلى الكتب التالية : الجمهرة لابن دريد ،
 التهذيب للأزهري ، الصحاح للجوهري ، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، الأساس
 والفاثق للزمخشري ، النهاية لابن الأثير ، المصباح المنير للفيومي ، لسان العرب لابن
 منظور ، القاموس للفيروز آبادي ، مجمع بحار الأنوار للفتني ، تاج العروس للزبيدي ،
 فتح الباري لابن حجر وهدي الساري له أيضاً .

١ - من العلماء الغرائب

عبد الله بن أبي نجیح المكي^(١) ، أحد علماء تابعي التابعين ، قال الجافظ الذهبي في ترجمته في « تاريخ الإسلام » ٥ : ٢٦٩ ، و« سير أعلام النبلاء » ٦ : ١٢٥ ، ما يلي :

« الإمام الثقة المفسر ، أبو يسار عبد الله بن أبي نجیح ، واسم أبيه يسار ، وكان أبوه مولى الأحنس بن شريق الصحابي .

أخذ الثقات ، حدث عن مجاهد وطاوس وعطاء وغيرهم ، ولم أجده شيئاً عن أحد من الصحابة ، حدث عنه شعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الوارث وابن علية وآخرون .

وثقه يحيى بن معين وغيره ، إلا أنه دخل في القدر . قال سفيان بن عيينة : كان ابن أبي نجیح مفتي أهل مكة بعد عمرو بن دينار ، وكان جميلاً فصيحاً ، حسن الوجه ، لم يتزوج قط .

(١) نجیح بفتح النون وكسر الجيم بوزن أمير ، كما في « مشتهر النسبة » للذهبي ص ٥١ ، و« القاموس » في (نجح) ، و« تاج العروس » للزبيدي ٢ : ٢٣٥ . وضبطه شكلاً محقق « البير » للذهبي ١ : ١٧٣ ، ومحقق « طبقات المفسرين » للداودي ١ : ٢٥٢ ، نجیح : بضم النون وفتح الجيم . وهو خطأ منهما .

قال البخاري : حدثنا الفضل بن مقاتل ، حدثنا عمر بن إبراهيم بن
كيسان ، قال : مكث ابن أبي نجيح ثلاثين سنة لا يتكلم بكلمة يؤدي بها جليسه .

قال علي - بن المديني - : أما التفسير فهو فيه ثقة يعلمه ، قد قفز القنطرة ،
واحتج به أرباب الصحاح ، ولعله رجع عن البدعة - أي القول بالقدر - ؟ وقد ر
رأى القدر جماعة من الثقات وأخطأوا ، نسأل الله العفو .
توفي سنة إحدى وثلاثين ومئة ، رحمه الله تعالى .

٢ - مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ

الأديبُ النحوي (أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري) ، جاء في ترجمته في « وفيات الأعيان » للقاضي ابن خُلَكان ٢ : ٤١٦ ، ما يلي :
« مولده سنة ٩٠ ، ومات سنة ١٨٢ - وقيل في ولادته ووفاته غير ذلك -
أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة . وكان النحو أغلب عليه ، وسمع من العرب .

وروى عنه سيويه كثيراً ، وسمع منه الكسائي والفراء ، وله قياس في النحو ومذهبٌ يتفرد بها ، وكان من الطبقة الخامسة ، وكانت حلقته بالبصرة . يتتابها الأدباء وفصحاء العرب وأهل الباقية .

قال معمر بن المُثَنَّى : اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة^(١) ، أملاً كل يوم

(١) هكذا كانت تلميذة الطلبة على الشيوخ عند المتقدمين : أربعين سنة ، وعشرين سنة ، وعشر سنين ، والطالب عالمٌ جدُّ عالم ، ومجلسُ الدرس طولُ النهار أو أكثره أو ربعه ، لا خمسين دقيقة أو خمساً وأربعين دقيقة ! فغدا أولئك الطلبة أئمةٌ بملازمة الأئمة .
أما اليوم فالدراسة أشهرٌ محدودة ، ودقائقٌ معدودة ، ومن الصحف والكراسات الصماء ، يتلقون منها دون مناقشة أو فهم أو هضم ، والحضور بين يدي العلماء مفقود ، والدعاوي عريضة ، والألقاب أعرض ! والعلم يشتكي إلى الله تعالى من أكثر هؤلاء المنتسبين إليه المتاجرين به !

الواحي من حفظه . وقال أبو زيد الأنصاري النحوي : جلستُ إلى يونس بن حبيب عَشْرَ سنين ، وجَلَسَ إليه قَبْلِي خَلْفُ الأحمرُ عشرين سنة .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : عاش يونس بن حبيب ٨٨ سنة ، لم يتزَوَّج ولم يَتَسَرَّ ، ولم تكن له هِمَّةٌ إلا طَلَبَ العلم ومحادثَةَ الرجال . وله من الكتب : كتابُ معاني القرآن الكريم ، وكتابُ اللغات ، وكتابُ الأمثال ، وكتابُ النوادر الصغير ، وكتابُ النوادر الكبير ، ومعاني الشعر ، رحمه الله تعالى .

ومَعَمَّرَ بن المُثَنَّى هذا ، الذي لازم شيخَه (يونس بن حبيب) أربعين سنة ، هو أبو عُبَيْدَةَ البصري النحوي ، المولود سنة ١١٠ ، والمتوفى سنة ٢٠٩ ، الإمامُ في العلم ، الذي قال فيه الجاحظ - وحسبك به في الثناء على العلماء - : « لم يكن في الأرض خَارِجِيٌّ ولا جَمَاعِيٌّ أعلمُ بجميع العلوم منه » . وقد تَرَكَ من المؤلفات له نحو ٢٠٠ كتاب . هذا الفحلُ الإمام كانت تلمذته على شيخه : أربعين سنة .

وجاء في « نزهة الألباء » لأبي البركات الأنباري ص ١٢٦ ، وفي « وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ٢٠٨ ، في ترجمة الإمام أبي زيد الأنصاري (سعيد بن يونس) البصري اللغوي الأديب ، تلميذ (يونس بن حبيب) ، وشيخ (الأصمعي) ، المولود سنة ١١٩ ، والمتوفى سنة ٢١٥ عن ٩٦ سنة ما يلي : « قال أبو عثمان المازني : كنا عند أبي زيد ، فجاء الأصمعيُّ إلى حلقة أبي زيد ، فأكبُّ على رأسه فقبله وجَلَسَ بين يديه ، وقال : أنت رئيسنا وسيدنا ومعلمنا منذ عشرين سنة ، ولفظ ابن خلكان : منذ خمسين سنة » .

وجاء في كتاب « العلل ومعرفة الرجال » للإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٦٧ ، قولُ الإمام أحمد رضي الله عنه : « لَزِمْنَا إسماعيلَ بنَ عَلِيَّةٍ بعدما مات هُشَيْمٌ - بن بَشِيرٍ ، وكان قد لَزِمَهُ الإمامُ أحمدُ أربعَ سنين - عَشْرَ سنين كل يوم ، لا نُجِلُّ إلا أن تكون الحاجة » .

٣ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

حسين بن علي الجعفي ، المولود سنة ١١٩ ، والمتوفى سنة ٢٠٣ ،
عن ٨٤ سنة رحمه الله تعالى ، جاء في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي
١ : ٣٤٩ ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ٢ : ٣٥٨ ما يلي :

« شيخ الإسلام^(١) ، أبو علي الجعفي مولا هم ، الكوفي ، الحافظ ،
المقرئ ، الزاهد ، القدوة .

قرأ على حمزة الزيات ، وسَمِعَ من أبي عمرو بن العلاء ، والأعمش ،
وجعفر بن بُرقان ، وسفيان ، وعِدَّة .

ورَوَى عنه أحمد ، وإسحاق ، ويحيى ، وابنُ الفرات ، وعبد بن
حُميد ، وعباس الدوري ، ومحمد بن عاصم ، وَخَلَقَ .

وَنُقِيَ يحيى بن مَعِين وغيره ، وقال محمد بن رافع : ذاك راهبُ أهل

(١) لفظ (شيخ الإسلام) لَقَبٌ أُطْلِقَ في عهد الخلافة العثمانية ، على من قام بوظيفة
الإمامة في الدين ، وكان أكبر العلماء مقاماً لدى سلطان المسلمين ، فهو بهذا المعنى لَقَبٌ
وُظِيفَ .

وأطلقه العلماء السابقون على كل من حاز درجةً كبيرةً عاليةً في العلم بالكتاب والسنة ،
وفي الفضل والصلاح والقدوة ، وكان مرجعَ المسلمين في العلم وشؤون الدين . وهو بهذا
المعنى واردٌ في كتب المحدثين والمؤرخين والرجال والتراجم ، فاعرفه .

الكوفة . وقال ابن قتيبة : قيل لسفيان بن عيينة : قَدِمَ حسين ، فَوَثَبَ وَأَتَى فِقْبَلُ يَدِهِ ، وقال : قَدِمَ رجلٌ أفضلُ رجلٍ يكونُ قطً . وقال سفيان بن عيينة : عَجِبْتُ لِمَنْ مَرَّ بالكوفة ، فلم يُقْبَلْ بين عَيْنَيِ حُسَيْنِ الجُعْفِيِّ . وكان سفيان الثوري إذا رآه عانقه .

وقال يحيى بن يحيى النيسابوري : إِنْ بَقِيَ مِنَ الْأَبْدَالِ أَحَدٌ فَحُسَيْنُ الجُعْفِيِّ . وقال الحجاج بن حمزة : مَا رَأَيْتُ حُسَيْنًا الجُعْفِيَّ ضَاحِكًا وَلَا مَتَبَسِّمًا ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً رَكَنَ فِيهَا إِلَى الدُّنْيَا . وقال أحمدُ العِجْلِيُّ : كَانَ ثَقَّةً ، لَمْ أَرِ أَفْضَلَ مِنْهُ ، وَكَانَ جَمِيلًا لَبَّاسًا .

وقال حُمَيْدُ بْنُ الرَّبِيعِ الْخَزَّازُ : كَتَبْنَا عَنْهُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ حَدِيثٍ . . انتهى .

وجاء في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ١٣ : ٤٧٣ ، في ترجمة (وكيع الجراح) : « قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الشَّامْسِ : لَوْ تَمَنَيْتُ كُنْتُ أَتَمَنَّى عَقْلَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَوَرَعَهُ ، . . . ، وَصَبَرَ حُسَيْنُ الجُعْفِيِّ ، صَبَرَ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا » .

٤ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْقُرَآئِبِ

الإمامُ الزاهد العابد ، المحدثُ الفقيه ، الجبلُ الثقة الرُّصَا ، عديمُ النظر في عصره ، أبو نصر يَشْرُ بن الحارث بن عبد الرحمن المَرْوَزِي ثم البغدادي ، المشهور باسم (يَشْر الحافي) .

ولد في مَرُوسنة ١٥٠ ، ونَزَلَ بغداد وتوطَّنَها ، وسَمِعَ بها الحديث ، وأَخَذَ عن شيوخٍ كثيرين في بغداد وغيرها ، منهم : حَمَاد بن زيد ، وعبدُ الله ابن المبارك ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ومالك بن أنس ، وأبو بكر بن عياش ، والفضيل بن عِيَاض ، وغيرهم .

وَوَرى عنه جماعةٌ من الأئمة الكبار ، منهم أحمد بن حنبل ، وإبراهيم الحري ، وزهير بن حرب ، وسَرِي السَّقَطِي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم ، وآخرون .

وسَمِعَ الحديثَ وأسمَعَه ، وَعَدَلَ وَجَرَحَ وَوَقَّقَ وَضَعَّفَ^(١) ، ثم اعتَزَلَ الناس ، واشتغل بالعبادة ، ولم يُحَدِّثْ ، وصارَ عَلَمًا من الأعلام في الزهد

(١) جاء ذلك في مواضع من كتب الرجال والمحدثين ، ومنها ما في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ١ : ٢٥٦ ، في ترجمة (يزيد بن زريع البصري) : « . . . وقال بشر الحافي : كان يزيد متقناً حافظاً ، ما أعلم أني رأيت مثله ومثل صحبة حديثه » .

والعبادة والتقوى والورع ، وقد أننى عليه غير واحد من الأئمة ، في عبادته وزهاده ونسكه وتقشفه وورعه ، وقيل له بأي شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية فأجعلها إداماً . ومات رحمه الله تعالى سنة ٢٢٧ من الهجرة عن سبع وسبعين سنة من العمر .

قال أحمد بن ماهان : سئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع ، فقال : أنا أستغفر الله ، لا يحلُّ لي أن أتكلَّم في الورع وأنا آكلُ من غلَّة بغداد ! لو كان بشرُّ بن الحارث ، صلَّح أن يجيئك عنه ، لأنه كان لا يأكل من غلَّة بغداد ولا من طعام السَّواد . قال الحسن بن محمد بن أعين : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : لولا بشرُّ وما نرجو من استغفاره لنا ، لكننا في عُظلة !

وقال الحسن بن الليث الرازي : قيل لأحمد : يجيئك بشرُّ بن الحارث ؟ قال : لا تُعنون الشيخ ، نحن أحقُّ أن نذهب إليه . وقال أبو بكر المروزي : سمعتُ أبا عبد الله ، وذكرَ بشرُّ بن الحارث ، فقال : لقد كان فيه أنس ، وقال : ما كلمته قط . - قال عبد الفتاح : كان الإمام أحمد يكتفي بمجالسته ومشاهدته ومُشَامته فحسب . -

وقال الإمام أحمد : إنما قَوِيَ بِشْر - أي على ما كان عليه من العبادة والزهد والورع والفضائل العالية - لأنه كان وَحْدَهُ ، ولم يكن له عيال ، ليس من كان مُعِيلاً كمن كان وحده ، لو كان إليَّ ما باليتُ ما أكلتُ ، ولو ترك الناسُ التزوُّج من كان يدفع العدو ؟ لبكاء الصبي بين يدي أبيه مُتَسَخِّطاً ، يَطْلُبُ منه خُبزاً أفضل من كذا وكذا ، فأين أن يلحقه المتعبُّ الأعزبُ ؟ . (نقلتُ هذه المقاطع الثلاثة من كتاب « الآداب الشرعية » لابن مفلح الحنبلي ٢ : ٢٥٤ و ٢٦٠ و ٢٦٢) .

وقال الإمام أحمد يوم بلغه موته : مات رحمه الله ولم يكن له نظير في هذه الأمة ، إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوَّج كان قد تمَّ أمره ، وما ترك بعده

مِثْلَهُ . وقال محمد بن المشني : قلت لأحمد بن حنبل : ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أي الرجال ؟ قلت : بشر ، فقال لي : ما مثله عندي إلا مثل رجل ركز رمحاً في الأرض ، ثم قعد منه على السنان ، فهل ترك لأحد موضعاً يقعد فيه ؟ انتهى قول الإمام أحمد .

وعلى هذا يصدق فيه قول زهير بن أبي سلمى :

سعى بعدهم قومٌ لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا
قال عبد الفتاح : وأثنى عليه تلميذه الإمام إبراهيم الحربي الذي كان
يشبه بأحمد بن حنبل ثناء ما رأيت مثله قيل في مدح عاقل ، قال إبراهيم
الحربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ، ولا أحفظ للسانه من بشر ، ما
عرف له غيبة لمسلم ، كأن في كل شعرة منه عقلاً ، ولو قسم عقله على أهل
بغداد لصاروا عقلاء ، وما نقص من عقله شيء ، وطىء الناس عقبه خمسين
سنة .

وقال الخطيب البغدادي : كان بشرٌ ممن فاق أهل عصره في الورع
والزهد ، وتفرد بوفور العقل ، وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، واستقامة
المذهب ، وعزوف النفس ، وإسقاط الفضول ، وكان كثير الحديث ، إلا أنه
لم ينصب نفسه للرواية ، وكل ما سُمع منه فانما هو على سبيل المذاكرة .

وقال الحافظ الدارقطني : بشرٌ بن الحارث : زاهدٌ ، جَبَلٌ ، ليس
يروي إلا حديثاً صحيحاً ، وربما تكون البلية ممن يروي عنه .

وقال الخطيب البغدادي والحافظ ابن كثير : وحين مات بشر ، اجتمع
في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر ، فلم يستقر
في قبره إلا بعد العتمة ، وكان النهارُ نهاراً صائفاً فيه طول . قال يحيى بن عبد
الحميد الجُماني : رأيت أبا نصر التمار وعلي بن المديني في جنازة بشر ،

يُصِيحان في الجنّازة : هذا واللّه شَرَفُ الدّنيا قبلَ شَرَفِ الآخرة . قال الذهبي : كانت له جنّازة عظيمة ، أُخْرِجَتْ من عَدْوَةٍ ، فلم يَحْصُلْ في قبره إلى الليل من الزحام . انتهى^(١) .

وإنما أُطْلُتْ بعض الإطالة في ترجمة (بِشْرِ الحافي) ، لأنّ المركوز في أذهان بعض الناس أنّه (صوفي درويش من الدراويش) ، ومُغْفَلٌ من المغفّلين الصالحين ، والواقع أنّه كان من كبار عقلاء الأمة وعلمائها وصُلَحَائِهَا ، رحمه الله تعالى ورضي عنه . ومصادر ترجمته هذه « تاريخ بغداد » للخطيب ٧ : ٦٧ - ٨٠ ، و« وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ٩٠ ، و« البداية والنهاية » لابن كثير ١٠ : ٢٩٧ ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ١ : ٤٤٤ ، و« خلاصة الخزرجي » .

(١) ونظراً إلى هذا المشهد ، كان يقال في السلف ، من جانب المتشرّعين للمبتدعين : بيننا وبينكم يومُ الجنّاز . يُشيرون بهذا إلى أنّ يومَ موْتِ العالم وتشيع جنازته ، ينكشفُ فيه من كان من أهلِ السنة والصّلاح عمن كان من أهلِ البدعة والطّلاح ، وذلك بانحسار الناس عن تشيع العالم المبتدع ، وانجفائهم وإقبالهم إلى تشيع العالم المتشرّع المتبع .

٥ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْقُرَّابِ

هَذَا بن السَّرِيِّ ، جاء في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٥٠٧: ٢ : « الحافظ ، القُدوة ، الزاهد ، شيخ الكوفة ، أبو السَّرِيِّ التميمي الدارمي المحدث ، حَدَّثَ عن أبي الأحوص سَلَام ، وشريك بن عبد الله ، وإسماعيل بن عياش ، وعَبَّثَر ، وهُشَيْم ، وخلق . وَرَوَى عنه الجماعة سوى البخاري ، - وَرَوَى عنه البخاري في كتاب « خَلَقَ أفعال العِبَاد » - وأبو زُرْعَة ، وعبدان وأبو العباس السراج ، وخلق .

قال أحمد بن سلمة النيسابوري : كان هَذَا كثيرَ البكاء ، فَرَغَ يوماً من القراءة لنا ، فتوضَّأ وجاء إلى المسجد ، فصلَّى إلى الزوال وأنا معه في المسجد ، ثم رجع إلى منزله فتوضَّأ وجاء فصلَّى بنا الظهر ، ثم قام على رجله يصلي إلى العصر ، ويرفع صوته بالقرآن ويكي كثيراً ، ثم صلَّى بنا العصر وأخذَ يقرأ في المصحف حتى صليتُ المغرب .

قلتُ لبعض جيرانه : ما أصبره على العبادة ؟ فقال : هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة ، فكيف لو رأيتُ عبادته بالليل ؟! وما تزوج قط ولا تسرى ، وكان يقال له : راهبُ الكوفة . ولد سنة ١٥٢ ، وتوفي سنة ٢٤٣ عن إحدى وتسعين سنة رحمه الله تعالى^(١) . وله مصنف كبير في الزهد .

(١) نعم : عاش إحدى وتسعين سنة من غير زواج ولا تسري ، تعلَّقاً بالعلم والعبادة ، فما أغلاهما على قلبه ؟ وما أقوى صبره ، وما أشدَّ جَلَدَه ؟ رحمه الله تعالى عليه ورضوانه العظيم .

٦ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، الحُجَّةُ ، المفسر ، المحدث ، الفقيه ، الأصولي ، النظَّار ، المُقَرِّء ، المؤرِّخ ، اللغوي ، النُّحوي ، العَرُوضي ، الأديب ، الراويُّ ، الشاعر ، المحقق المدقق ، جامعُ العلوم والمفاخر ، وذو التصانيف والمآثر ، المجتهدُ المطلِّق ، وأحدُ أئمة الدنيا علماً وديناً وحفظاً وكثرة تآليف جياذ ، وقد طبَّقَتْ شهرته الآفاق ، وصار اسمه (العَلَمُ المفرد) عند الإطلاق .

وأقِطَفَ هنا جُمَلًا من ترجمته الحافلة الوارفة ، في « معجم الأدباء » للعلامة ياقوت الحموي ١٨ : ٤٠ - ٩٦ ، وفي « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ٢ : ١٦٢ - ١٦٩ ، رحمهما الله تعالى .

وُلِدَ في بلدةٍ آمَلٍ من بلاد طَبْرِستان سنة ٢٢٤ ، وحَفِظَ القرآن وعمره سبع سنين ، وَكَتَبَ الحديثَ وعُمُرُهُ تِسْعُ سنين ، وَرَحَلَ في طلب العلم يافعاً وعُمُرُهُ اثنتا عشرة سنة ، في عام ٢٣٦ حين سَمَحَ له أبوه بالرحلة ، ودخل بغداد بعد وفاة أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ فلم يلقه ، وطَوَّفَ أقاليمَ الإسلام لتحصيل العلم ولقاء العلماء ، فجال بلاد خراسان والعراق والشام ومصر ، ثم استوطن بغداد ، وأقام بها إلى حين وفاته رحمة الله عليه . وقد حاز مقام الإمامة في العلم وهو في مقتبل شبابه ، ثم غدا إماماً فذاً ، مشهوداً له ، مرجوعاً إليه ، في كل العصور وعلى مرَّ الدهور .

قال الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٦٣ ، في

ترجمته : كان أحد أئمة العلماء ، يُحكّم بقوله ، ويُرجع إلى رأيه ، لمعرفة فضله ، وكان قد جمّع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظاً لكتاب الله عز وجل ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسُنن وطُرُقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخلفين ، في الأحكام ومسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم .

وله التفسير المشهور الذي لم يُصنّف أحد مثله : « جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن » ، وله الكتاب المشهور في التاريخ « تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والأمم » ، و« تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار » لم أرسوا في معناه ، إلا أنه لم يتمه ! وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ، واختيار من أقاويل الفقهاء . وتفرد بمسائل حفظت عنه .

قال الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرائيني الفقيه^(١) : لو سافر رجل إلى الصين ، حتى يحصل له « تفسير ابن جرير » ، لم يكن ذلك كثيراً . وقال الإمام أبو بكر بن خزيمة بعد أن وقف عليه : نظرت فيه من أوله إلى آخره ، وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير .

وحدث علي بن عبيد الله اللغوي السُّمِّي ، عن القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السُّمَّسار وأبي القاسم بن عقيل الوراق : أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه : أنتشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ! فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ، وأملأه في سبع سنين ، من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين .

(١) يقال : إسفرائيني بكسر الهمزة وفتحها ، ويفتح الفاء ويكسرهما ، وإسفرائيني بالياء الواحدة بعد الألف ، وبالهمزة بدلاً عنها ، وإسفرائيني بياءين ، كما في « تاج العروس » ٩ : ٢٣٥ .

ثم قال لهم : أنتشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ! فقال : إنا لله ! ماتت الهمم ! فاختصره في نحو مما اختصر التفسير ، وفرغ من تصنيفه ومن عرضه - أي قراءته - عليه يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاث مئة ، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاث مئة .

قال الخطيب : وسمعت السُّمَّيَّ يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة ، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة . وحدث تلميذه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني ، في كتابه المعروف بكتاب « الصلّة » ، وهو كتاب وصل به « تاريخ ابن جرير » : أن قوماً من تلاميذ ابن جرير ، حصلوا أيام حياته ، منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسّموا عليها أوراق مصنّفات ، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة . وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق .

وحكى تلميذه أبو بكر بن كامل - أحمد بن كامل الشَّجَرِيُّ القاضي صاحب ابن جرير - قال : قال لي أبو جعفر : حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانين سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين . ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان معي مخلّة مملوءة حجارة ، وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبر : إنه إن كبر نصّح في دينه وذّب عن شريعته . فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صغير .

وكنا نكتب عند محمد بن حميد الرازي ، فيخرج إلينا في الليل مرات ، ويسأل عما كتبناه ، ويقرؤه علينا . وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدُولَابي ، وكان في قرية من قرى الرِّيِّ ، بينها وبين الرِّيِّ قطعة ، ثم نعدو كالمجانين ! حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق مجلسه . ويقال : إنه كتب عن ابن حميد فوق مئة ألف حديث .

وصَارَ في رحلته إلى الكوفة ، فكَتَبَ فيها عن عدد من المحدثين ، ومنهم أبو كُرَيْب محمد بن العلاء الهَمْدَانِي ، وكان هذا شَرَسَ الخُلُقِ ومن كبار أصحاب الحديث .

قال أبو جعفر : حضرتُ بابَ داره مع أصحاب الحديث ، فاطَّلَعَ من بابِ خَوْخَةٍ له - الخَوْخَةُ : البابُ الصغيرُ على البابِ الكبير - ، وأصحابُ الحديثِ يلتمسون الدخولَ ويَضْجُونَ ، فقال : أيكم يَحْفَظُ ما كَتَبَ عني ؟ فالتَفَتَ بعضهم إلى بعض ، ثم نظروا إليَّ وقالوا : أنت تحفظُ ما كَتَبَ عنه ؟ قلتُ : نعم ، فقالوا : هذا فسَلُهُ ، فقلتُ : حَدَّثْتَنِي في يومٍ كَذَا بكذا ، وفي يومٍ كَذَا بكذا .

قال : وأخذ أبو كُرَيْب في مسأله ، إلى أن عَظُمَ في نفسه ، فقال له : ادخُلْ إليَّ ، فدخَلَ إليه وعَرَفَ قدرَه على حدائته ، ومكَّنه من حديثه ، وكان الناسُ يَسمعون به - أي بسببه ، فيقال : إنه سَمِعَ من أبي كُرَيْب أكثرَ من مئة ألفِ حديث . ثم عاد إلى مدينة السلام : بغداد فكتب بها وَلَزِمَ المَقَامَ بها مدةً ، وتفَقَّه بها وأخذ في علوم القرآن ، ورَوَى الشعر عن ثعلب ، قال أبو عُمَرَ محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعتُ ثعلباً يقول : قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء ، قبل أن يكثر الناسُ عندي بمدة طويلة .

ثم غرَّب فخرج إلى مصر ، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والشعور ، وأكثرَ منها ، ثم صار إلى القُسْطَاط في سنة ثلاث وخمسين ومِئتين ، وكان بها بَقِيَّةً من الشيوخ وأهل العلم ، فأكثرَ الكتابة عنهم من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم ، ثم عاد إلى الشام .

ثم رجع إلى مصر في سنة ست وخمسين ومِئتين ، قال أبو جعفر : لما دخلتُ مبصر لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلا لَقِينِي وامْتَحَنِي في العلم الذي يَتَحَقَّقُ به .

فجاءني يوماً رجل ، فسألني عن شيء من العَرُوض ، ولم أكن نشطتُ له قبل ذلك ، فقلتُ له : عليَّ قولُ أن لا أتكلَّم اليوم في شيء من العروض ، فإذا كان في غدٍ فصِرَ إليَّ ، وطلبتُ من صديق لي « العَرُوض » للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرتُ فيه ليلتي ، فأمسيْتُ غيرَ عروضي ، وأصبحتُ عَرُوضياً .

وفي خلال تَطَوُّفه في البلدان ، وارتحالِه لتلقي العلوم من كبار العلماء ، لقي الألاقِيَّ والشَّدائد ، ومَسَّه الجُوعُ والعُدْمُ والإملاقُ غيرَ مرة ! حتى فَتَقَ كُمِّي قميصِه وباعَهُمَا ، لِيَقْتَاتَ بِشَمْنَهُمَا ! حين أبطأتُ عليه نفقةُ والده ! وأملَقَ وجاع حينما كان بمصر في حدود سنة ٢٥٦

قال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ ، على ما لا يجهله أحدٌ عَرَفَه ، لجميعِه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة ، ولا ظَهَرَ من كُتُب المصنِّفين ، وانتشر من كُتُب المؤلِّفين ما انتشر له .

وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات والتاريخ من الرسل والخلفاء والملوك ، واختلافِ الفقهاء ، مع الرواية كذلك ، على ما في كتاب « البسيط » و« التهذيب » و« أحكام القراءات » ، من غير تعويل على المناولات والإجازات ، ولا على ما قيل في الأقوال ، بل يذكُر ذلك بالأسانيد المشهورة .

وقد بان فضلُه في علم اللغة والنحو ، على ما ذكره في كتاب « التفسير » وكتاب « التهذيب » مخبراً عن حاله فيه . وقد كان له قَدَمٌ في علم الجدل ، يدل على ذلك مناقضاته في كتبه على المُعَارِضِينَ لمعاني ما أتى به . وكان يحفظ من الشعر للجاهلية والإسلام ، ما لا يجهله إلا جاهل به .

وكان قد نَظَرَ في المنطق والحساب والجبر والمقابلة ، وكثير من فنون أبواب الحساب ، وفي الطب ، وأخذ منه قسطاً وافراً ، يدل عليه كلامه في الوصايا .

وكان فيه من الزهد ، والورع ، والخشوع ، والأمانة ، وتصفية الأعمال ، وصدق النية ، وحقائق الأفعال : ما دَلَّ عليه كتابه « أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة » . وكان شديد التوقي والحذر والنزاهة والورع . ومع ما كان فيه من الاشتغال بالتصانيف والحديث والإملاء : لا بُدَّ له مع ذلك من جزبه من القرآن ، ويقال : إنه كان يقرأ كل ليلة رُبْعاً أو حِطّاً وافراً .

وكان أبو جعفر مجوداً في القراءة موصوفاً بذلك ، يَقْصِدُهُ الْقُرَّاءُ الْبُعْدَاءُ ومن الناس للصلاة خلفه ، يسمعون قراءته وتجويدَه ، قال أبو بكر بن مجاهد - أحمد بن موسى البغدادي - شيخُ القراء في عصره : ما سمعتُ في المحراب أقرأ من أبي جعفر ابن جرير .

وقال أبو علي الطُّوماري : كنتُ أحمل القنديل في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد إلى صلاة التراويح ، فخرَجَ ليلةً من ليالي العشر الأواخر من داره ، واجتاز على مسجد فلم يدخله وأنا معه ، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَش ، فوقف بباب مسجد محمد بن جرير ، ومحمد يقرأ سورة الرحمن ، فاستمع قراءته طويلاً ثم انصرف ، فقلتُ له يا أستاذ تركتَ الناس ينتظرونك وجئتَ تسمعُ قراءةَ هذا ؟ ! فقال : يا أبا علي ، دَعُ هذا عنك ، ما ظننتُ أن الله تعالى خَلَقَ بَشَرًا يُحْسِنُ يَقْرَأُ هذه القراءة .

وكان أبو جعفر يكره أن يَخُصَّ أحداً من الطلبة بشيء من العلم دون سائر الجماعة ، فحرَّصَ أبو بكر بن مجاهد - مع موضعه في نفسه وعند أبي جعفر - أن يسمع منه منفرداً قراءةً ورَّشَ عن نافع ، عن يونس بن عبد

الأعلى ، عنه ، وكان يُقَصَّدُ فيها ، فأبى إلا أن يَسْمَعَهَا مع الناس ، مما أثار ذلك في نفس أبي بكر بن مجاهد . وكان إذا قرأ عليه جماعةً كتاباً ، ولم يحضره أحدُهم لا يَأْذُنُ لبعضهم أن يقرأ دون بعض . وإذا سأله إنسانٌ في قراءة كتاب وغاب لم يُقرئه حتى يحضر .

وكان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها ، يَرَفَعُ نَفْسَهُ عن التماسها ، وكان كالقارئ الذي لا يَعْرِفُ إلا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يَعْرِفُ إلا الحديث ، وكالحاسب الذي لا يَعْرِفُ إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات ، جامعاً للعلوم ، وإذا جُمِعَتْ بين كتبه وكتب غيره ، وَجَدَتْ لكتبه فضلاً على غيرها .

وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره ، نظيفاً في باطنه ، حَسَنَ العِشْرَةِ لمجالسِهِ ، متفقداً لأحوال أصحابه ، مُهَذَّباً في جميع أحواله ، جميلَ الأدب في مأكليه ، وملبسه ، وما يَخُصُّهُ في أحوال نفسه ، منبسطاً مع إخوانه ، حتى ربما دأبهم أحسن مُدَاعِبَةٍ ، وربما جِيءَ بين يديه بشيء من الفاكهة ، فيُجَرِّي في ذلك المعنى ما لا يَخْرُجُ عن العلم والفقه والمسائل ، حتى يكون كأجْدَ جِدٍّ وأَحْسَنَ عِلْمٍ .

وقد كان يمضي إلى الدعوة يُدْعَى إليها ، وإلى الوليمة يُسأل فيها ، ويكون ذلك يوماً مشهوداً من أجله ، وشريفاً بحضوره ، وكان يَخْرُجُ مع بعضهم إلى الصحراء فيأكل معهم . وكان إذا دخل منزله بعد المجلس ، لا يكادُ يَدْخُلُ إليه أحدٌ ، لتشاغله بالتصنيف ، إلا في أمرٍ مهمٍّ^(١) .

(١) قد يرى القارئ أنني توسَّعتُ في هذه الترجمة ، وذكرت فيها الكثير من الأخلاق الخاصة للإمام ابن جرير الطبري ، وعمداً فعلتُ هذا : لمعرفة جزء مما كانت عليه أخلاق الأئمة المعتبرين السالفين ، ولأنَّ معشراً مِنَّا - أخصُّ طلبَةِ العلم وأنا منهم - يفتقرُ إلى التأدُّب بما كان عليه الإمام أبو جعفر بن جرير - وأمثاله - ، من أخلاقٍ اكتسبها من علمه =

وكان إذا أهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه المكافأة عليه ، قَبَلَهَا وكافاه ، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليها رَدَّهَا واعتذر إلى مُهديها . ووجهُ إليه أبو الهيجاء بن حمدان - الأميرُ عُمُ سيف الدولة - ثلاثة آلاف دينار ، فلما نظر إليها عَجِبَ منها ، ثم قال : لا أقبلُ ما لا أقدرُ على المكافأة عنه ، ومن أين لي ما أكافئُ به عن هذا ؟ فقيل : ما لهذا مكافأة ، إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل ، فأبى أن يَقْبَلَهُ ورَدَّهُ إليه . وأهدى إليه أبو المحسن المحررُ جاره فرخين ، فأهدى إليه ثوباً .

وكان يختلف إليه أبو الفرج الأصبهاني ، الكاتب ، يقرأ عليه كُتبه ، فالتَمَسَ أبو جعفر حَصِيرًا لَصْفَةً له صغيرة ، فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخذَ مقدارَ الصَّفَةِ ، واستعملَ له الحَصِيرَ - أي أوصى أن تُعملَ له - ، متقرباً بذلك له ، وجاءهُ به وقد وَقَعَ موقعه ، فلما خَرَجَ دعا ابنه - أي ابنَ أبي الفرج - ودَفَعَ إليه أربعةً دينار ، فأبى أن يأخذها ، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحَصِيرَ إلا بها .

وقال أبو بكر بن كامل : كان أبو جعفر مَلِيًّا بما نَهَضَ فيه ، من أي علم كان ، وكان متوقفاً عن الأخلاق التي لا تليقُ بأهل العلم ، ولا يُؤثِّرُها إلى أن مات ، وكان يُجِبُّ الجِدُّ في كلِّ أحواله . وقال لنا أبو جعفر : ما حَلَلْتُ سَرَائِلي على حرام ولا حلال قط^(١) . وسأله يوماً سائل عن نَسَبِهِ ، فقال :

= بالكتاب والسنة وسيرة السلف ، ومصاحبتهم لهم ، فأردتُ من ذكر أخلاقه الخاصة : الدرس والاستفادة والانطباع بها ، والله ولي التوفيق .

وطولُ هذه الترجمة اقتضاه طولُ الشَّاءِ الذي اتَّصَفَ به صاحبُها الإمامُ ابن جرير رحمه الله تعالى عليه ، قال أبو الطيب في مثل هذا المقام :

وقد أطال ثنائي طولاً لا يبيته إنَّ الشَّاءَ على التَّنْبَالِ تَنْبَالاً !

(١) وجاء في « لسان الميزان » للحافظ ابن حجر ٥ : ١٠٢ ، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري : « قال مُسَلِّمَةُ بن قاسم : كان محمد بن جرير حَصُورًا لا يَعْرِفُ النساء ، وَرَحَلَ من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فلم يزل طالباً للعلم مُولِعاً به إلى أن مات » .

محمد بن جرير ، فقال السائل : زدنا في النسب ، فأنشده لرؤبة :
 قد رَفَعَ الْعَجَّاجُ ذِكْرِي فَادْعُنِي بِأَسْمِي إِذَا الْأَنْسَابُ طَالَتْ يَكْفِينِي
 وحضرته حين حضرته الوفاة ، فسألته أن يجعل كل من عاداه في جِل ،
 وكنت سألته ذلك لأجل أبي عليّ الحسني بن الحسين الصواف ، لأنني كنت
 قرأت عليه القرآن ، فقال : كل من عاداني وتكلم فيّ في جِل ، إلا رجلاً
 رماني ببدعة .

وكان الصواف من أصحاب أبي جعفر ، وكانت فيه سلامة ، ولم يكن
 فيه ضبط روية العقل ، فلما أملى أبو جعفر « ذيل المذيل » ، ذكر أبا حنيفة
 وأطراه ، وقال : كان فقيهاً عالماً ورعاً ، فتكلم الصواف في ذلك الوقت في
 أبي جعفر ، لأجل مدحه لأبي حنيفة ، وانقطع عن أبي جعفر ، وبسط لسانه
 فيه !

قال أبو بكر بن كامل : قال لي أبو علي محمد بن إدريس الجمل -
 وكان من وجوه الشهود بمدينة بغداد - : حضرنا يوماً مع أبي جعفر الطبري
 وليمةً ، فجلستُ معه على المائدة ، فكان أجمل الجماعة أكلاً ، وأظرفهم
 عشرة ، ما رأيت أظرف أكلاً منه ، كان يدخل يده في الغضارة - هي القصعة
 الكبيرة - ، فيأخذ منها لقمةً ، فاذا عاد بأخرى ، كَسَحَ - أي مسح - باللقمة ما
 التَطَخَ من الغضارة باللقمة الأولى ، فكان لا يلتطخ من الغضارة إلا جانب
 واحد .

وكان إذا تناول اللقمة ليأكل سَمَى ، ووضع يده اليسرى على لحيته
 ليوقها من الزهومة - يعني من اثر الدفر - ، فاذا حصلت اللقمة في فيه أزال
 يده ، وكان إذا جلس لا يكاد يسمع له تنخّم ولا تبصق ، ولا يرى له نخامة ،
 وإذا أراد أن يمسه ريقه ، أخذ فؤابة منديله ومسح جانبي فيه .

قال أبو بكر بن كامل : ولقد حَرَصْتُ مراراً أن يَسْتَوِيَ لي مثلُ ما يفعلُه ، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيَّ اعتياده ! وما سمعته قطُ لاجئاً ، ولا حالفاً بالله عز وجل . وكان حَسَنَ القيامِ على نفسه .

وكان لا يَعْدُمُ في الصيف الحَيْسَ - هو التَّمَرُ يُخْلَطُ بالسُّنَمِ والأَقِطِ ويُعَجَّنُ شديداً ، وربما جُعِلَ فيه السُّويقُ - ، والرَّيْحَانُ واللَّيْنَوَفَرُ - ضَرْبٌ من الرياحين يَنْبُتُ في الميَاهِ الراكدة - ، فإذا أَكَلَ نام في الخَيْشِ - ثيابٌ في نسجها رِقَّةٌ ، وخيوطها غلاظٌ ، تُتَّخَذُ من مُشَاقَّةِ الكَتَّانِ ، تُلْبَسُ في الحرِّ عند النومِ - ، في قميصٍ قصيرِ الأكمامِ ، مصبوغٍ بالصُّنْدَلِ وماءِ الوردِ .

ثم يقوم فيصلي الظهرَ في بيته ، ويكتبُ في تصنيفه إلى العصر ، ثم يَخْرُجُ فيصلي العصر ، وَيَجْلِسُ للناسِ يُقْرِئُهُ ويُقْرَأُ عليه إلى المغرب ، ثم يَجْلِسُ للفقهِ والدُّرُسِ بين يديه إلى العِشاءِ الآخرة ، ثم يَدْخُلُ منزله . وقد قَسَمَ ليلَه ونهارَه في مصلحةِ نفسه ، ودينه ، والخلقِ ، كما وفقه الله عز وجل .

وكان أَسَمَرَ إلى الأُدْمَةِ ، أَعْيَنَ ، نحيفَ الجسمِ ، مَدِيدَ القامةِ ، فصيحَ اللسانِ ، كبيرَ اللحية ، ولم يَغْيُرْ شَبِيهَهُ ، وكان السَّوَادُ في شَعْرِ رَأْسِهِ ولحيته كثيراً .

قال الأستاذ محمد كُرْد علي في « كنوز الأجداد » ص ١٢٣ ، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري : « وما أثيرَ عنه أنه أضاع دَقِيقَةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة ، رَوَى المُعَاذِيُّ بن زكريا عن بعض الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته ، وتوفي بعد ساعةٍ أو أقلَّ منها ، فذَكَرَ له هذا الدُّعَاءُ عن جعفر بن محمد ، فاستَدَعَى محبرةً وصحيفةً فكتبه ، فقليل له : أفي هذه الحال ؟! فقال : ينبغي للإنسان أن لا يدَعَ اقتباسَ

العلم حتى الممات . انتهى .

قلتُ : رحمك الله تعالى يا أبا جعفر ، لقد استنفدت الجهد والدقائق والثواني في خدمة العلم وتحصيله ، ونشره وتدوينه ، فكنت إماماً وقُدوةً في حياتك وبعد مماتك ، ويصدق عليك قولُ القائل :

سَعِدْتُ أَعْيُنُ رَأَيْتُكَ وَقَرَّتْ وَالْعُيُونُ الَّتِي رَأَتْ مِنْ رَأَاكَ

وتوفي لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠ ، عن ٨٦ سنةً ، غزباً لا زوجة حوله ، ولا وَلَدَ له بعده ، وإنما خَلَفَ وأبْقَى من العلم والمؤَلَفَاتِ الحافلة ، ما لا يُنْسَى ولا يُجْهَل على وجه الدهر ، فكانت تَأْلِيفُهُ الكثيرةُ النادرةُ ، ذُرِّيَّتُهُ الباقيةُ المذكَّرةُ به البارةُ ، بل كانت أَدْوَمَ تذكيراً به من النسل والأولاد ، رحمةُ الله عليه .

قال أبو بكر الخطيب : ولم يُؤَذَّنْ به أحد ، فاجتمع على جنازته من لا يُحْصِي عَدَدَهُم إِلَّا اللَّهُ تعالى ، وصُلِّيَ على قبره عِدَّةُ شُهُورٍ لَيْلاً ونهاراً ، ورثاه خَلَقٌ كثير من أهل الدين والأدب .

وعَمِلَ الإمامُ الأديب اللغوي أبو بكر بن دُرَيْدٍ (محمد بن الحسن) البصري ، المتوفى سنة ٣٢١ ، في رثائه قصيدةً رُثَاءَةً بَلَغَتْ ٣٥ بيتاً ، أوردها كاملةً الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٢ : ١٦٧ - ١٦٩ ، وأورد بعضها الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٢ : ٧١٥ ، في ترجمته . وهي من أروع الشعر وأجزله ، وأصدقه وأفضله ، جَسَمَتْ أخلاقَ الإمام ابن جرير ، وسَجَلَتْ فضائله . وسأسوقها بعد قليل .

وقد أفرد غير واحد من العلماء سِيرَتَهُ بالتأليف ، فمنهم صاحبُه وتلميذُه أبو بكر بن كامل ، وعبد العزيز بن محمد الطبري ، وعن هذين الكتّابين نَقَلَ

ياقوت في «معجم الأدباء» مُعْظَمَ ترجمته ، كما أشار إلى ذلك في آخر ترجمة ابن جرير ١٨ : ٩٤ . وألف في سيرته أيضاً الوزير جمال الدين القفطي الحلبي (علي بن يوسف) ، المتوفى سنة ٦٤٦ ، وسمّاه : «التحرير في أخبار محمد بن جرير» ، وذكر ذلك في كتابه «إنباء الرواة» ٣ : ٩٠ ، في ترجمة ابن جرير ، وقال : «وهو كتاب مُنَمِّع» .

قصيدة الإمام ابن دُرَيْد في رثاء الإمام ابن جرير رحمهما الله تعالى

لَنْ تَسْتَطِيعَ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعْقِيَا	فَاسْتَجِدِ الصَّبْرَ أَوْ فَاسْتَشِعِرِ الْحُوبَا ^(١)
وَاغْزَعْ إِلَى كَنْفِ التَّسْلِيمِ وَارْضَ بِمَا	قَضَى الْمُهَيِّئُ مَكْرُوهًا وَمَحْبُوبًا
إِنَّ الْعَزَاءَ إِذَا عَزَّتْهُ جَائِحَةٌ	ذَلَّتْ عَرِيكَتُهُ فَاغْنَادَ مَجْنُوبَا ^(٢)
فَإِنْ قَرَنْتَ إِلَيْهِ الْعَزَمَ أَيْدِهِ	حَتَّى يَعُودَ لَدَيْهِ الْحُزْنَ مَغْلُوبَا
فَارْمِ الْأَسَى بِالْأَسَى تُطْفِئِ مَوَاقِعُهَا	جَمْرًا خِلَالَ ضُلُوعِ الصُّدْرِ مَشْبُوبَا ^(٣)
مَنْ صَاحَبَ الدَّهْرَ لَمْ يَغْدَمْ مَجْلَجَلَةٌ	يَظُلُّ مِنْهَا طَوَالَ الْعَيْشِ مِنْكَوبَا ^(٤)
إِنَّ الْبَلِيَّةَ لَا وَقَرَّ تُزْعِزْغُهُ	أَيْدِي الْحَوَادِثِ تَشْتِتَا وَتَشْذِيبَا ^(٥)
وَلَا تَفَرِّقُ الْأَفْئِدُ يَفُوتُ بِهِمْ	بَيْنَ يُغَايِرُ حَبْلَ الْوَصْلِ مَقْضُوبَا ^(٦)

(١) الحُوبُ بضم الحاء : الحُزْنُ . واستشعره : لَبَسَهُ ودام عليه .
(٢) العزاء : الصبر . والجائحة هنا : المصيبة . وعزته : غلبته . والمجنوب : اللين السهل . يريد : أن الصبر إذا غلبته ثلثة المصيبة ضَعُفَ وتلّين .
(٣) الأسى بفتح الهمزة : الحُزْنُ . والأسى بضم الهمزة : جمع أسوة ، وهي ما يأتي به الحزين ويتعزى أي يتصبر ، ومنه قولهم : إِنَّ الْأَسَى تَدْفَعُ الْأَسَى ، ذكره الزمخشري في «أساس البلاغة» .
(٤) المجلجلة هنا يراد بها المصيبة ذات الوقع الشديد ، وهي لشدةها تُشَبَّه بصوت الرعد القاصف .

(٥) الْوَقَرُ : المال الكثير الواسع . تُزْعِزُهُ : تُفَرِّقُهُ .

(٦) مقضوباً : مقطوعاً .

لكنَّ فِقدانَ من أَضحى بِمَصْرَعِهِ نورُ الهُدَى وبِهاءِ العلمِ مَسْلُوباً

أودى أبو جعفر والعلمُ فاصطحبا
 إنَّ المَنيَّةَ لم تُتْلَفْ به رجلاً
 أهدى الرّدى للثرى إذ نال مُهْجَتَهُ
 كان الزمانُ به تَصَفُّو مَشارِبُهُ
 كلاً وإيامِهِ الغُرُّ التي جَعَلَتْ
 لا يَنسِرِي الدهرُ عن شِبِّهِ له أبداً
 أوفى بَعْهَدٍ وأورى عند مَظْلَمَةٍ
 منه وأزَسنَ جِلْماً عند مُزْجِجَةٍ
 إذا انتَضَى الرأى في إيضاحِ مُشْكِلةٍ
 لا يَغْرُبُ الجِلْمُ في عَنَبٍ وفي نَزَقٍ
 لا يُولِجُ اللُّغُو والغوراءُ مَسْمَعَهُ
 إن قال قاذَ زِمَامَ الصديقِ مُنْطَلِقُهُ
 أعْظَمَ بذا صاحِباً إذ ذاك مَصْحُوباً^(١)
 بل أَتَلَفَتْ عِلْماً للذَّينِ مَنصُوباً
 نَجْماً على من يُعَادِي الحَقَّ مَضْبُوباً
 فالآنَ أَصْبَحَ بالتَكدِيرِ مَقْطُوباً^(٢)
 للعلمِ نوراً وللتقوى مَحَارِيباً
 ما اسْتَوَقَفَ الحُجَّ بالانْصَابِ أَرْكُوباً^(٣)
 زَنْدأً وآكَدَ إِسْراماً وتَأدِيباً
 تُغَادِرُ القُلُوبُ الدَّهْنَ مَنخُوباً^(٤)
 أعاد مَنهجها المَطمُوسَ مَلْحُوباً^(٥)
 ولا يُجْرَعُ ذا الزُّلَّاتِ تَثْرِيباً^(٦)
 ولا يُقَارَفُ ما يُغْشِيهِ تَأْنِيباً^(٧)
 أو آثَرَ الصمتِ أُولَى النَفْسِ تَهْيِيباً

(١) أودى : هَلَكَ ومات .

(٢) مقطوباً : ممزوجاً .

(٣) لا ينسري الدهر : لا ينكشف الزمان عن شبيهه له . والأركوب بمعنى الرُّكْب لكنه أكثر منه عدداً ، والركب : الجمعُ يَبْلُغُ العَشْرَةَ فصاعداً .

(٤) القُلُوبُ هنا : البصيرُ بتقلبِ الأمور الصعبة ، يَخْرُجُ منها بِذِكااته وفطانةِ ذهنه . والمنخوب : الضعيفُ عن حَلِّ المُشْكِلات والصعاب .

(٥) انتضى الرأي : أبداه وأظهره . وملحوباً : واضحاً جلياً .

(٦) تثريباً : لوماً وتعييراً بِزُلَّاتِهِ .

(٧) يعني أنه لا يضجر ويتبرم مما ينوبه ويقع عليه من النَّاتِبَاتِ .

لقلبه ناظرًا تقوى سَمَا بهما
تَجَلُّوْا مَوَاعِظُهُ رَيْنَ الْقُلُوبِ كَمَا
سَيَّانَ ظَاهِرُهُ الْبَادِي وَبَاطِنُهُ
لَا يَأْمَنُ الْعَجْزُ وَالتَّقْصِيرُ مَادِحُهُ
وَدَّتْ بَقَاعُ بِلَادِ اللَّهِ لَوْ جُعِلَتْ
كَانَتْ حَيَاتُكَ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا



لَوْ تَعَلَّمَ الْأَرْضُ مَا وَارَتْ لَقَدْ خَشَعَتْ
كَنتَ الْمَقْشُومَ مِنْ زَيْغٍ وَمِنْ ظَلَمٍ
وَكنتَ جَامِعَ أَخْلَاقِ مُطَهَّرَةٍ
فَإِنْ تَنَلَّكَ مِنَ الْأَقْدَارِ طَالِبَةٌ
فَإِنَّ لِلْمَوْتِ وَرَدًا مُمَقَرًّا فَظَعْمًا
إِنْ يَنْدَبُوكَ فَقَدْ ثُلَّتْ عُرُوشُهُمْ
وَمِنْ أَعَاجِيبِ مَا جَاءَ الزَّمَانُ بِهِ -
أَنْ قَدْ طَوَّنَتْكَ غُمُوضُ الْأَرْضِ فِي لِحْفٍ وَكَنتَ تَمَلُّ مِنْهَا السَّهْلَ وَاللُّوْبَا (٧)

(١) الغياهيب جمع غَيْهَب ، وهو الظلمة .

(٢) مجدوبا : خاليا من القرى والضيافة .

(٣) الظَّلَم بفتح اللام : المِيل عن الحق . وقوله : وَفَاكَ نُصْحًا ... أي وَفَاكَ اللَّهُ نُصْحًا ... أي أعطاك ذلك وافيًا تامًا على أكمله وأوفاه .

(٤) قِرَاف الجهل : مُقَارَبَتُهُ .

(٥) مُمَقَرًّا : مُرًّا شديد المرارة .

(٦) ثُلَّتْ : انهدمت وتَقَوَّضَتْ . والعُرُوش هنا : أركان العلم ، جمع عَرْش وهو ركن الشيء . والضمير في قوله : يندبوك ، يعود على العلماء ، المفهوم من المقام .

(٧) غُمُوضُ الأرض : جمع غَمُض وهو المكان المظلم المنخفض . واللَّحْفُ بكسر اللام وفتح الحاء جمع لِحْفٍ بكسر اللام وسكون الحاء ، وهو أصلُ الجبل . واللُّوب بضم اللام : الوعر .

انتهت قصيدة الإمام ابن ذُرَيْد في رثاء الإمام ابن جرير . وما سَبَق من
الجَمَل التي نقلتها في ترجمة الإمام ابن جرير : مصداق لما جاء فيها .

وما أحقَّ رحمه الله تعالى - وقد أدَّأب نَفْسَه في تدوين العلم وكتابة
التاريخ ، بقول العلامة عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني النُحوي ،
المتوفى سنة ٣٦٦ ، من قصيدة في رثاء شيخه مؤرِّخ مصر ومحدِّثها (أبي
سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري الصَّدفي) ، المولود سنة
٢٨١ ، والمتوفى سنة ٣٤٧ رحمه الله تعالى ، كما في ترجمته في « وفيات
الأعيان » للقاضي ابن خَلَّكان ١: ٢٧٨ :

ما زِلْتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تَكْتِبُهُ حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا!
وأنا أوردُ هنا القصيدة التي منها هذا البيت لطرافتها وتجانُسِ
مُناسِبَتِها ، وتلبيةً لتشوِّف القارئ إليها ، وقصيدة ابن ذُرَيْد أبلغ .

بَشَّتْ عِلْمَكَ تشريقاً وتغريباً وعُدَّتْ بعدَ لذيذ العيشِ مندوبا
أبا سعيد وما نألوك أن نَشَرْتَ عنكَ الدواوينُ تصديقاُ وتصويا
ما زِلْتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تَكْتِبُهُ حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا!
أَرَحْتَ موتَكَ في ذِكْرِي وفي صُحُفِي لمن يُؤرِّخني إذ كنتُ منسوباً!
نَشَرْتَ عن مصرٍ من سُكَّانها عِلْماً مَبْجَلاً بجمالِ القومِ منصوبا
كشفتَ عن فخرِهِم للناسِ ما سَجَعْتَ وَرَقُ الحَمَامِ على الأغصانِ نظريا
أعربتَ عن عَرَبٍ، نَقَبْتَ عن نُحْبٍ سارَتْ مناقبُهُم في الناسِ تنقيا
أَنَشَرْتَ مِيتَهُم حُباً يَنْسَبِيهِ حتى كانَ لم يَمُتْ إذ كانَ منسوباً
إِنَّ المكارمَ للإحسانِ مُوجِبَةٌ وفيكَ قد رُكِّبْتُ يا عبدَ تركيا
حُجِبَتْ عنا وما الدنيا بِمُظْهِرَةٍ شخصاً وإن جَلَّ إلا عادَ محجوباً!
كَذلِكَ الموتُ لا يَبْقِي على أَحَدٍ - مَدَى الليالي - من الأحبابِ محبوباً!

٧ - دَمِنَ الْعُلَمَاءُ الْفَرَّابُ

الإمام أبو بكر بن الأنباري (محمد بن القاسم بن محمد) ، النُّحَويُّ ، المفسِّر ، الأديب ، الراوية ، الحَفَاطُ بَحْرُ الحفظ ، البغدادي ، المولود سنة ٢٧١ ، والمتوفى سنة ٣٢٨ رحمه الله تعالى .

لقد امتنع هذا الإمامُ العالمُ طولَ حياتِهِ من تناول الطَّيِّبات من الأطعمة - وقد قُدِّمَتْ له على موائد الملوك - إبقاءً على حفظه ، وزَهْدَ في اقتراب النساء - بعد أن دَخَلَت المرأةُ الحسناءُ الحلالُ دارَهُ وبيته - جفاظاً على تفرُّغه لعلمه ، فكان أعجوبةً في حفظه ، وفي علمه ، وفي تأيِّمه وزهده ، فلم يكن له نسلٌ ولا ذُرِّيَّةٌ من بعده سوى أكثرَ من ثلاثين مؤلفاً ، تزيدُ أوراقها على أكثر من خمسين ألفَ ورقة ! فلهذه دَرُهُ ما أغلى العلمُ على قلبه ؟ وإليك شيئاً من ترجمته :

جاء في ترجمته في « تاريخ بغداد » للخطيب ٣ : ١٨١ - ١٨٦ ، « وإنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطي ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٧ ، و« وفيات الأعيان » لابن خَلِّكان ١ : ٥٠٣ ، ما يلي :

كان من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وأكثرهم حفظاً له ، سَمِعَ عالماً من الأئمة في زمانه ، ورَوَى عنه مثلُ ذلك ، وكان صدوقاً فاضلاً ديناً خيراً من

أهل السُّنة ، وصنَّف كتباً كثيرة في علوم القرآن ، وغريب الحديث والمُشكِـل ، والوقف والابتداء .

وكان يحفظ - فيما ذَكَر - ثلاث مئة ألف بيتٍ من الشعر ، شاهدةً في القرآن ، وكان يُملي من حفظه لا من كتاب ، وكانت عادته في كل ما يُكتب عنه هكذا ، في كتبه المصنَّفة وأماليه المشتَمِلة على الفوائد اللغوية والنحوية والأخبار والتفسير والأشعار .

ومَرِض مرةً ، فدخل عليه أصحابه يعودونه ، فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمراً عظيماً ، فطَبَّـبوا نفسه ، ورجَّـبوا له عافية أبي بكر ، فقال لهم : كيف لا أَقلُّ وأنزِعُ لِعَلَّة من يحفظُ جميع ما ترون ، وأشار لهم إلى جِـيـري مملوء كتباً^(١) .

(١) الجيري هنا صِفةٌ لموصوفٍ محذوف هو (حُب) ، والحُب هو الجرَّة الكبيرة الضخمة ، وقيل له : (حُب جيري) ، لأنه كان يُصنَّع في (الجيرة) مدينةً بالعراق كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، وقد دَخَلَتْ فيها منذ عهد بعيد ، وكانت حاضرة ملوك العرب المناصرة ، وتألَّفت فيها الحضارة بأنواعها ، وشهدت ازدهاراً ورقياً في الصناعات المختلفة ، المعهودة في العصر الجاهلي وبعده ، ومنها صناعة الجرار والقلل ودناب الخمر ، فأتقنت فيها صناعة الجِـبَاب ، ونُسبت إليها فـقـيل : (حُب جيري) على القياس ، و (حُب حاري) على غير القياس مسموعاً من العرب ، ثم طوي ذكر الموصوف : (حُب) لاشتهار ذلك ، واقتصر على الصِّفة اختصاراً على عادة الناس في الشيء المعروف عندهم ، فقيل : (جيري) ، و (حاري) .

والحُب أكبر من القلَّة والدَّن ، والقلَّة دون الحُب وأكبر من الدَّن ، كما ذكره الإمام ابن سيِّدة في « المخصَّص » ١١ : ٨٣ . فالحُب أكبر الأوعية الحافظة التي كانت عندهم ، وجمعه : جِـبَاب . وكان العلماء في القديم يحفظون في (الجِـبَاب) الكتب والأوراق وما يخافون عليه التلف والضياع .

وعلى تقادُّم الزمن ، ويُعَدِّ العهد ، وتغيُّر الوسائل المستعملة في أمور الحياة : جُـهـل المقصود من لفظ (جيري) و (حاري) من كثير من المتأخرين ، وغُلب في تفسيره غالطون من الذين عَرَفوا بالعلم والتحقيق ، وسبَّب ذلك غفولهم عن أنه صِفةٌ لموصوف ، =

=ومن لم يَعْرِف الموصوفَ أخطأ في تفسير الصفة ولا ريب .

١ - فمتنهم مصصح « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي : الشيخ محمد حامد الفقي ، فقد عُلّق فيه ٣ : ١٨٢ على جملة : (وأشار لهم إلى حيري مملوء كتباً) بقوله : « في القاموس : الحير شبه الحظيرة » . انتهى كلامه .

وفيه أخطاء كثيرة ، وذلك أن اللفظ المفسّر منسوب ، وهذا الذي نقله عن القاموس : (الحير) غير منسوب ، ثم المنسوب صفة لموصوف ، وهذا اسم لذات المسمّى لا وصف له ، ثم المنسوب بكسر الحاء نسبة إلى (الحيرة) ، وهذا : (الحَيْر) بفتح الحاء لا غير ، ثم (الحَيْر) شبه الحظيرة تَوْضَع فيه الدُّوَاب ، (والجيري) وعاء توضع فيه الكتب ، ففي هذا التفسير أغلاط متراكمة ! تَوَرَّطَ فيها من رأى كلام الشيخ الفقي وتعليقه على « تاريخ بغداد » !! وقنّح به !

٢ - ومنهم محقق كتاب « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » لأبي البركات عبد الرحمن بن الأنباري : الدكتور إبراهيم السامرائي ، العراقي ، في الطبعة التي ساعدت جامعة بغداد على نشرها ، وطُبِعَتْ في بيروت (الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠ ميلادية) ، فقد عُلّق فيه ص ٢٠٣ على جملة : (وأشار إلى حيري مملوء كتباً) بقوله : « كذا في تاريخ بغداد وفي إنباه الرواة . وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة . أمّا في نسخة ق ونسخة د فهو : حاري » . انتهى كلامه .

وفيه أخطاء كثيرة أيضاً ، فقد غُلَطَ لفظ (حيري) واعتبره تصحيحاً ، وأشار إلى ذلك بقوله متبرّداً : « كذا في تاريخ بغداد وإنباه الرواة » . وهذا الذي تبرّأ منه بقوله : (كذا) هو الصواب . ثم تابع مصصح « تاريخ بغداد » ، فنقل ما قاله على أنه الصواب ! وارتضى تفسيره وقوله : « في القاموس : الحير شبه الحظيرة » ! ثم نقل ما جاء في نسختي ق ود ، وهو (حاري) ، فجعله من الخطأ والتحريف ! وهو الصواب بعينه .

٣ - ومنهم محقق « نزهة الألباء » أيضاً : الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، في الطبعة المصرية التي طُبِعَتْها دار نهضة مصر سنة ١٣٨٦ = ١٩٦٧ بتحقيقه ، فقد عُلّق فيه ص ٣٧١ على جملة (وأشار إلى حاري مملوء كتباً) بقوله : « كذا في الأصل وإنباه الرواة وتاريخ بغداد . وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة . وفي نسخة ط (حاري) ، قال في اللسان : أنماط تعمل بالحيرة ، تُزَيَّن بها الرجال » . انتهى كلامه .

وفيه أغلاط متزايدة على ما سبق ! فقد أثبت في النص (حاري) وظنّها (حيري) ، ولهذا قال : كذا في الأصل وإنباه الرواة وتاريخ بغداد . وفي نسخة ط (حاري) . ثم نقل عبارة القاموس : الحير شبه الحظيرة ! وزاد ضيغاً على إباله بتفسيره (الحاري) بما نقله =

= عن لسان العرب : أنماط تُعْمَل بالحِيرة ، تُزَيَّن بها الرجال . فعَوْل الموضوع وَقَلْبُه رأساً على عقب ! ونَقَلَ اللفظَ المُفسَّر من وعاءٍ للكتب إلى (أنماط تُعْمَل بالحِيرة ، تُزَيَّن بها الرجال) ! وهذا شيء لا دخل له هنا !

٤ - ونحو هذا علّق قديماً هو نفسه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، على الجملة نفسها في « إنباء الرواة » للقفطي ٣ : ٢٠٢ ، المطبوع بدار الكتب المصرية بتحقيقه سنة ١٣٧٤ = ١٩٥٥ ، فقال : « وأشار لهم إلى حيري مملوء كتباً . كذا في الأصلين وتاريخ بغداد ، وفي القاموس : الحير شبه الحظيرة » . انتهى كلامه . وفيه ما تقدم بيّانه من الأغلاط .

٥ - وجاء في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي أيضاً ، في ترجمة (أبي القاسم ابن الأنباري) ٢ : ٧٠ ، هكذا : (وأشار لهم إلى خيري مملوء كتباً) . انتهى ، وهو تحريف عن (جيري) .

٦ - وقع في (الجيري) أو (الحاري) هذا تحريفات عجيبة ! فجاء في « معجم الأدباء » لياقوت الحموي من طبعة الدكتور مرجليوث ، المطبوعة بمطبعة هندية بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٣٠ ميلادية ، في ترجمة الإمام (محمد بن جرير الطبري) ٦ : ٤٤٤ ما يلي : « كان أبو الحسن بن المُفلس الفقيه - وكان أفضَلَ من رأيناه فهماً وعنايةً بالعلم ودرساً له - لعنائه بدرّس العلم ، تُعَمَّى كُتُبُه في جانبِ حارته ، ثم يَتَبَدَّى فيدْرُسُ الأوَّلَ فالأوَّلَ منها ، إلى أن يَفْرُغَ منها ، وهو ينقلها إلى الجانب الآخر ، فإذا فَرَّغَ منها عاد في قَرَبِها ونقلها إلى حيث كانت ... » . انتهى . وقوله هنا : (في جانب حارته) تحريف عن (في جانب حاريّ له) ، أو تحريف عن (في جانب حاريّ) .

٧ - ووقعت هنا العبارة نفسها في « معجم الأدباء » أيضاً ، من طبعة الدكتور أحمد فريد الرفاعي ، المطبوعة بمطبعة دار المأمون في القاهرة بتصحيح الأستاذ عبد الخالق ، في ترجمة الإمام (محمد بن جرير) نفسه ١٨ : ٦٨ باللفظ التالي : « ... تُعَمَّى كُتُبُه في جانب حائر ، ثم يَتَبَدَّى فيدْرُسُ الأوَّلَ فالأوَّلَ ... » . وعُلّق الأستاذ عبد الخالق عليها بقوله : « الحائر : المكان المظلم » . انتهى .

وهذا كله خَبْطٌ وَخَلْطٌ ! وَقَعَ من جرّاءِ حَذَفِ الموصوف (حُب) ، فجاءت هذه المعجائب الغرائب من التصحيفات والتعليقات والتفسيرات الخاطئة . ومعدّرة من الإطالة في تصويب هذه الكلمة ، فاني أردتُ نَقْيَ الاضطراب فيها ، وكشفَ معناها على الصواب لمن بعدي من طلبة العلم وأهله ، نَفَعَنِي اللهُ بِصَالِحِ دعواتهم .

وكان أحفظ الناس للغة والنحو والشعر وتفسير القرآن ، وحُدِّث أنه يحفظُ عشرين ومئة تفسيرٍ من تفاسير القرآن بأسانيدِها . وقال تلميذه أبو العباس بن يونس : كان أبو بكر بن الأنباري آيةً من آيات الله في الحفظ . وقال تلميذه أبو علي القالي - الإمام الأديب المشهور : - كان أبو بكر بن الأنباري يحفظ - فيما ذكر - ثلاث مئة ألف بيتٍ شاهدةٍ في القرآن ، وكان ثقةً دِيناً صدوقاً .

قال محمد بن إسحاق النديم في « كتابه » : كان أفضل من أبيه وأعلم ، في نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسُرعة الحفظ ، وكان مع ذلك ورعاً من الصالحين ، لا تُعرف له زلة ، وكان يُضربُ به المثل في حضور البديهة وسُرعة الجواب .

وحكى أبو الحسن العروضي ، قال : كان ابنُ الأنباري يتردّد إلى أولاد الراضي بالله - الخليفة العباسي أحمد بن المقتدر ، بُويع سنة ٣٢٢ ، وتوفي سنة ٣٢٩ - ، فكان يوماً من الأيام قد سألتُه جاريةً عن شيء من تفسير الرؤيا ؟ ، فقال لها : أنا حاقن - أي يحتاجُ إلى الذهابِ لبيتِ الخلاء للبول - ثم مضى ، فلما كان من الغد عاد وقد صار مُعبراً للرؤيا ، وذلك أنه مضى من يومه فدرّس كتابَ الكِرْماني - في تعبير الرؤيا - وجاء .

قال حمزة بن محمد الدقاق : وكان مع حفظه زاهداً متواضعاً ، حكى أبو الحسن الدارقطني أنه حضره في مجلسٍ إملائه يوم الجمعة ، فصَحَّف اسماً أورده في إسنادٍ حديث ، إما كان حَبَّان فقال : حَيَّان ، أو حَيَّان فقال : حَبَّان .

قال أبو الحسن : فاعظمتُ أن يُحمَل عن مثله في فضله وجلالته وهم ، وهبته أن أوقفه على ذلك ، فلما انقضى الإملاء ، تقدّمتُ إلى المستملي وذكرتُ له وهمه ، وعرفته صواب القول فيه وانصرفتُ . ثم حضرتُ الجمعة

الثانية مجلسه ، فقال أبو بكر للمستملي : عرّف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلاني ، لما أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية ، ونبّهنا ذلك الشاب على الصواب ، وهو كذا ، وعرّف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال .

وحكى أبو الحسن العروضي ، قال : اجتمعت أنا وأبو بكر بن الأنباري عند الراضي بالله على الطعام ، وكان أبو بكر قد عرّف الطباخ ما يأكل ، فكان يسوي له قليّة يابسة ، قال : فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايه ، وهو يعالج تلك القليّة ، ثم فرغنا ، فأتيينا بحلواء فلم يأكل منها شيئاً ، وقام وقمنا إلى الخيش - هي ثياب في نسجها رقّة ، وخيوطها غلاظ من مشاقّة الكتّان - ، فنام بين يدي الخيش ، ونمنا نحن في خيش ينأفس فيه ، ولم يشرب ماء إلى العصر .

فلما كان بعد العصر ، قال : يا غلام ، الوظيفة ، فجاءه بماء من الحب - أي الخابية - ، وترك الماء المزمّل بالثلج ، فغاطني أمره ، فصحت صيحة : يا أمير المؤمنين ! فأمر بإحضاري ، وقال : ما قصّتك ؟ فأخبرته ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، هذا يحتاج أن يُحال بينه وبين تدبير نفسه ، لأنه يقتلها ولا يحسن عشرتها ، قال : فضحك وقال : له في هذا لذة ، وقد جرّت به العادة ، وصار ألفاً له فلن يضره .

ثم قلت : يا أبا بكر ، لم تفعل هذا بنفسك ؟ قال : أبقني على حفظي ، قلت : قد أكثر الناس في حفظك ، فكم تحفظ ؟ قال : أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً . قال محمد بن جعفر التميمي النحوي : وهذا ما لا يحفظ لأحد قبله ولا بعده .

وكان يأخذ الرطب يشمه ويقول : أما إنك لطيب ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لي من العلم . ولما وقع في علّة الموت أكل كل شيء

يشتيه وقال : هي عِلَّة الموت !

وَمَضَى يوماً إلى النخاسين - يباعي الرقيق من العبيد والإماء - ، ورأى جارية تُعرضُ حسنة الصُورةِ كاملة الوصف ، قال : فوقعتُ في قلبي ، ثم مضيتُ إلى دار أمير المؤمنين الراضي بالله ، فقال لي : أين كنتُ إلى الساعة ؟ فعرفته ، فأمرَ بعضَ أسبايه - أي غلمانِه - فمَضَى فاشتراها ، وحَمَلَهَا إلى منزلي ، فجنثُ فوجدتها ، فعَلِمْتُ الأمرَ كيف جرى .

فقلتُ لها : كوني قَوَّاق إلى أن أُستبرئَكَ - أي أتبينَ براءةَ رَجُلِكَ من الحمل ، وذلك بحلول الحيضِ لها - ، وكنتُ أطلبُ مسألةً قد اختلَّت علي ، فاشتغلَ قلبي عن علمي ! فقلتُ للخادم : خُذْها وامضِ بها إلى النخاسين ، فليسَ قَدْرُهَا أن تشغلَ قلبي عن علمي ، فأخذها الغلام .

فقلت : دَعْنِي أَكَلِّمُهُ بِحَرْفَيْنِ ، فقالت : أنت رجلٌ لك مَحَلٌّ وَعَقْلٌ ، وإذا أخرجتني ولم تُبينَ لي ذنبي ، لم آمنَ أن يظُنَّ الناسُ بي ظناً قبيحاً ، فعرفنيهِ قَبْلَ أن تُخرجني ، فقلتُ لها : مالكِ عندي عَيْبٌ ، غيرَ أنكِ شَغَلْتَنِي عن علمي ، فقالت : هذا أسهلُّ عندي .

قال : فبلغَ الراضي بالله أمره ، فقال : لا ينبغي أن يكونَ العلمُ في قلبٍ أحدٍ أَحَلَّى منه في صَدْرِ هذا الرجل ! . رحمةُ الله تعالى عليه .

٨ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

إمام أئمة العربية في عصره : أبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد) ، المولود سنة ٢٨٨ ، والمتوفى سنة ٣٧٧ عن ٨٩ سنة رحمه الله تعالى . ولد في مدينة (فسا) من بلاد فارس ، فيقال في نسبته : الفارسي ، والفسيوي ، وطلب العلم ، ثم رحل الى بغداد ودخلها سنة ٣٠٧ وأقام بها .

ثم جال ودار في البلدان ، ودخل الشام فزار حلب وطرابلس ومَعَرَّة النعمان ، وأقام بحلب سنة ٣٤١ عند الأمير سيف الدولة بن حمدان نحو سبع سنين ، وجرت بينه وبين الشاعر أبي الطيب المتنبّي مجالس ، وامتحن بخصومة ابن خالوته النحوي بحلب ، وكان هذا العالم من خلصاء سيف الدولة وآثرهم عنده ، فلم تطب لأبي علي الإقامة هناك .

ترك أبو علي مدينة حلب ورجع إلى بلاد فارس ، وورد مدينة شيراز سنة ٣٤٨ ، فلبث فيها عشرين عاماً منقطعاً إلى الملك عضد الدولة بن بُوَيْه ، وتقدم عنده ، وعلت منزلته ، وعلمه النحو ، حتى كان الملك عضد الدولة يقول : أنا غلام أبي علي النحوي في النحو ، وصنف أبو علي له كتاب « الإيضاح » وكتاب « التكملة » ، ولما استولى عضد الدولة على بغداد ، عاد أبو علي إليها ، وأقام فيها إلى أن توفي منتقلاً إلى رحمة الله تعالى .

وكان أبو علي في رحلاته وانتقالاته في البلاد ، يُجالس العلماء ، ويحاضرُ الطلاب ، ويُجيب عن الأسئلة العويصة التي توجه إليه ، ويؤلف فيها وفي غيرها الكتب ، وسُئل في حلب ، وشيراز ، وبغداد ، والبصرة ، وغيرها ، أسئلة كثيرة من كبار العلماء ، فصنّف فيها الكتب إجابةً للسائلين ، وسماها بنسبتها إلى البلد الذي أُلِّفَ فيه ، مثل « البغداديات » ، و« البصريات » ، و« الحلبيات » ، و« الشيرازيات » .

وبارك الله في عمر أبي علي ، فعاش نحو تسعين سنة ، يخدم العلم وأهله ، ويؤلف في علوم القرآن وعلوم العربية التصانيف الفريدة ، ولم يتزوج ولم يُعقب ، وإنما كانت ذُرِّيَّتُهُ ونَسْلُهُ : مؤلفاته وتصانيفه التي بقيت بعده إلى يومنا هذا ، وقد بلغت نحو ٢٥ كتاباً .

منها « الحجة » في عِلَلِ القراءات السَّبْع ، في ستة مجلدات ، و« التذكرة » في علوم العربية عشرين مجلداً ، و« الإيضاح » في النحو ، و« شرح أبيات الإيضاح » ، و« المسائل القصصية » ، و« المسائل العسكرية » ، و« الأهوازيات » ، و« المسائل الكرمانية » ، و« العوامل المينة » ، و« المسائل الذّهنيّات » ، و« المسائل المَجَلِسِيّات » ، و« تعليقة » على كتاب سيويه ، و« جواهر النحو » ، و« الهَيْثُمِيّات » ، وغيرها .

وكان الإمام ابن جُنِّي من أخصّ تلامذة الإمام أبي علي الفارسي ، ومن المشغوفين به ، وقد أفاض في كتبه بذكره ، والثناء عليه ، والاعتباس من علومه ومعارفه ، وكاد يستوعب علمه ، وقد أشار إلى عَزُوبَتِهِ ، وتفرُّغِهِ وتفرُّدِهِ - بخلّوهِ من الزوجة والوَلَد - للعلم والتأليف ، وتأصيلِ القواعد وتأسيسِها في مواضع من كتبه .

قال في كتابه « الخصائص » ١ : ٢٧٧ ، وهو يتحدث عن قُوَّة أبي علي في معرفة القياس في اللغة ، ومتانتِهِ به تعقيداً وتأصيلاً : « أقام على هذه

الطريقة سبعين سنة ، زائحةً عِلَّله ، ساقطةً عنه كُلفه ، وجعله همُّه وسَدَمَه -
يعني : مَقْصِدَه - ، لا يَعتَاقُه عنه ولد .

وأشار ابنُ جني أيضاً إلى عُزوبته في مقدمة كتابه « المحتسب » ، فقال
وهو يُشيد به ، وَيُبينُ سَبَبَ سَمُو علمه و غزارةِ معارفه : « ... بِخُلُوسِ رِيه ،
و سُروحِ فِكْره ، وفُرُودِه بِنَفْسِه » . انتهى . رحمة الله تعالى عليه .

ومصادر هذه الترجمة « وفيات الأعيان » لابن خلكان ١ : ١٣١ ،
و « الأعلام » للزركلي ٢ : ١٩٣ ، ومقدمة كتابه « الحجة » بتحقيق الأستاذة :
علي النجدي ، والدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور عبد الفتاح شلبي ،
ومراجعة الأستاذ محمد علي النجار^(١) .

(١) ومما ينبغي التنبيه عليه ما وقع لهؤلاء الكبار الأفاضل ، من تحريف في كنية
الشيخ الإمام أبي اليُمْن الكِندي (زيد بن الحسن) المتوفى سنة ٦١٣ ، الذي سُمِعَ عليه
كتاب « الحُجَّة » من النسخة المخطوطة التي اعتمدوا عليها في الطبع ، فقد وقعت كنيتهُ
في السماع الذي في المخطوطة - على ما أثبتوه - في ص ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ من مقدمتهم
هكذا : « ... وكتب زيدُ بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمين في ذي الحجة من سنة
ست وست مئة » . انتهى .

وجاء لفظ (أبو اليمين) بعد هذا في تمام السماع الذي نقلوه وفي كلام المحققين
أنفسهم مكرراً خمسَ مرَّات : (أبو اليمين) بياء بعد الميم !! وهو تحريف بين ، أثبتوه
مطمئنين ، ومشَّوا عليه مُقرِّين ، وزادوا في الإقرار للتحريف إيغالاً ! فعَلَّقوا في ص ٣٩
على (أبي اليمين زيد بن الحسن بن زيد الكندي) قولهم : « ترجمتهُ في طبقات
القراء ١ : ٢٩٧ ، وبُغية الوعاة ٣٤٩ » . فأوهم ذكرهم هذين المصدرين لترجمته أنه كذلك
هو فيها ! وليس كذلك ، بل هو أبو اليُمْن بضمَّ أَلْياء وسكون الميم بعدها ، فاعرفه .

٩ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

إمام الحديث والمحدثين في عصره أبو نصر السَّجْزِي ، الذي ترجم له الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١١٨ ، فقال :

« أبو نصر السَّجْزِي ، الحافظُ الإمام ، عَلِمَ السُّنَّةَ ، عُيِّدَ اللهُ بِنِ سَعِيدِ ابْنِ حَاتِمِ بْنِ أَحْمَدَ الْوَالِثِيِّ الْبَكْرِيِّ ، نَزِيلُ الْحَرَمِ وَمِصْرَ ، وَصَاحِبُ « الْإِبَانَةِ الْكُبْرَى » فِي مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ كِتَابٌ طَوِيلٌ فِي مَعْنَاهُ ، دَالٌّ عَلَى إِمَامَةِ الرَّجُلِ وَبَصِيرَةٍ بِالرِّجَالِ وَالطَّرِيقِ .

حَدَّثَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ فِرَاسِ الْعَبْقَسِيِّ ، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمِ ، وَأَبِي أَحْمَدَ الْفَرَضِيِّ ، وَحَمْزَةَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَمُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ بَكْرِ الْهَزْزَانِيِّ ، وَأَبِي عَمْرِو بْنِ مَهْدِيٍّ ، وَعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ السُّوسِيِّ ، وَأَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَجْبَرِ ، وَأَبِي مُحَمَّدَ بْنِ النَّحَّاسِ ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ ، وَعَبْدَ الصَّمَدِ بْنِ زَهِيرِ بْنِ أَبِي جَرَّادَةَ الْحَلَبِيِّ صَاحِبِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ ، وَهَذِهِ الطَّبَقَةُ .

وكانت رحلته بعد الأربع مئة ، فَسَمِعَ بِخُرَاسَانَ وَالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ . حَدَّثَ عَنْهُ أَبُو إِسْحَاقَ الْحَبَّالُ ، وَسَهْلُ بْنُ بَشَرَ الْإِسْفَرَايِينِي ، وَأَبُو مَعْشَرَ الْمُقْرِئِ الطَّبْرِي ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ الْحَسَنِ الْعُلَوِي ،

وأحمد بن عبد القادر اليوسفي ، وجعفر بن يحيى الحَكَّاك ، وجعفر بن أحمد السراج ، وخلقٌ سواهم . وهو راوي الحديث المسلسل بالأولِيَّة .

قال ابن طاهر المقدسي : سألتُ الحافظ أبا إسحاق الحَبَّال عن أبي نصر السَّجْزِي والصُّوْرِي - أبي عبد الله محمد بن علي السَّاجِلِي الصُّوْرِي الحافظ العلَّامة الأوحد - أيُّهما أحفظ ؟ فقال : كان السَّجْزِيُّ أحفظَ من خمسين من مثلي الصُّوْرِي .

ثم قال الحَبَّال : كنتُ يوماً عند أبي نصر السجزي ، فدُقَّ الباب ، فقمْتُ ففتحتُهُ ، فدخلتُ امرأةً وأخرجتُ كيساً فيه ألف دينار ، فوضعتُهُ بين يدي الشيخ ، وقالت : أنفقها كما ترى ، قال : ما المقصود ؟ قالت : 'تزوِّجني ، ولا حاجة لي في الزواج ولكن لأخدمك ، فأمرها بأخذ الكيس وأن تنصرف .

فلما انصرفتُ قال : خرجتُ من سِجِسْتان بِنِيَّة طلب العلم ، ومتى تزوَّجتُ سَقَطَ عني هذا الاسم ، وما أُوثِرَ علي ثوابِ طلبِ العلم شيئاً . مات بمكة سنة أربع وأربعين وأربع مئة رحمه الله تعالى .

١٠- وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الحافظُ الفقيهُ الزاهدُ أبو سَعْدِ السَّمَانِ الرَّازِي ، البصري ، المولود سنة ٣٧١ ، والمتوفى سنة ٤٤٥ ، رحمه الله تعالى ، أَحَدُ المَحْدَثِينَ النَّسَابِينَ ، والفُقَهَاءِ الْفَرَضِيِّينَ ، والقُرَّاءِ الْمَفْسُورِينَ ، والأَفْزَادِ الْمُتَقِينَ ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، وشاهدَ الرجالَ والشيوخَ ، وتوفي عن ٧٤ سنة عَزَباً قَرِيرَ الْعَيْنِ بِالْعِلْمِ وَمَا أَلْفَهُ فِيهِ .

قال الحافظ عبد القادر القرشي في « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » ١: ١٥٦ ، في ترجمته « أبو سعد السمان إسماعيل بن علي بن الحسين بن زَنْجُوِيَّةِ الرَّازِي ، الحافظ الزاهد المعتزلي ، شَيْخُ الْعَدْلِيَّةِ - أي المعتزلة - وعَالِمُهُمْ وفقيههم ومتكلمهم ومُحَدِّثُهُمْ ، وكان إماماً - بلا مدافعة - في القراءات والحديث ومعرفة الرجال والأنساب والفرائض والحساب والشروط والمقدِّرات .

وكان إماماً أيضاً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابه ، وفي معرفة الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما ، وفي فقه الزيدية ، وفي الكلام ، وكان يذهب مذهبَ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - قال عبد الفتاح : كذا ، ولم أعرفه بعد - ومذهبَ الشَّيْخِ أَبِي هَاشِمٍ .

وكان قد حجَّ وزار قبر النبي ﷺ ، ودخل العراق وطاف الشام والحجاز وبلاد المغرب ، وشاهد الرجال والشيخ ، وقرأ على ثلاثة آلاف رجل من شيوخ زمانه^(١) . قال أبو الحسن المطهر بن علي المرتضى : سمعت أبا سعد

(١) وترجم له الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ١١٢١ ، وقال في ترجمته : « وقال أبو القاسم بن عساكر : سألت أبا منصور بن عبد الرحيم بن المظفر بالرِّيِّ ، عن أبي سعد السَّمان ، فقال : كان عدليَّ المذهب ، يعني معتزلياً ، وقال : كان له ثلاثة آلاف وست مئة شيخ . قلت - القائل الذهبي - : هذا العدد لشيوخه ، لا اعتدُّ وجوده ولا يُمكن » . انتهى كلامُ الذهبي .

قال عبد الفتاح : استبعدُ الذهبي لهذا العدد من الشيخ ، يُعارضه إقراره لنحو هذا العدد في ترجمة الحافظ الإمام ابن النجار (محمد بن محمود) في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٤٢٩ ، ففيها : « قال ابن الساعي : كانت رحلة ابن النجار سبعاً وعشرين سنة ، واشتملت مَشِيخَتُهُ على ثلاثة آلاف شيخ » .

وُعارضه أيضاً إقراره لضعف هذا العدد في ترجمة الإمام أبي سعد السَّمعاني (عبد الكريم بن محمد) ، في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٣١٦ ، قال فيها : « قال ابن النجار : سمعت من يذكُر أن عددَ شيوخه سبعة آلاف شيخ ، وهذا شيء لم يبلغه أحد » . انتهى . وقد أقره الحافظ الذهبي ولم يُعقب عليه بشيء ، وكان هذا أحقَّ بالتعقيب عليه من التعقيب على شيوخ أبي سعد السَّمان لو سلَّم التعقيب .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » ١ : ٤٢٢ ، في ترجمة أبي سعد السَّمان (إسماعيل بن علي) المترجم له هنا : عددَ شيوخه كما ذكره الذهبي وأقره ، وكذلك أقره من قبلهما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الذي رواه الذهبي من طريقه ، وكذلك نقله الحافظ الداودي في « طبقات المفسرين » ١ : ١١٠ ، وأقره أيضاً .

وقال الحافظ العراقي في « شرح ألفيته » ٢ : ٢٣٣ ، في شرح أبيات (آداب طالب الحديث) : « وقد وُصف بالإكثار من الشيخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس بن محمد المؤدَّب ، ومحمد بن يونس الكُذَيْمي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم بن داود البغدادي ، رويَا عنه قال : كتبت عن مِئَةِ آلاف شيخ » . انتهى . وهذا من الحافظ العراقي يُفيدُ قبوله وإقراره لما ذُكر من عدد شيوخ أبي سعد السَّمان ، فقد أقر ما رواه من عدد شيوخ القاسم بن داود ، وهو ضعفُ شيوخ السَّمان .

وقال العلامة عبد الرحمن المُعلِّمي رحمه الله تعالى ، في مقدمته لكتاب « الأنساب » لأبي سعد السَّمعاني ١ : ٢١ ، وهو يتحدث عن عددِ شيوخه : « ذكر ابن خلكان وغيره أن =

السُّنَّان يقول : من لم يَكُتِبْ الحديث ، لم يَتَغَرَّغْ بحلاوة الإسلام .

وكان يقال في مدحه : إنه ما شاهدَ مثْلَ نفسه ، وكان مع هذه الخصال الحميدة زاهداً ورعاً قواماً ، مجتهداً صواماً ، قانعاً راضياً ، أتى عليه أربع

= عندَ شيوخ أبي سَعْدٍ يزيد على أربعة آلاف ، وقال ابنُ النجار : سمعتُ من يَذكر أن عدَدَ شيوخه سبعةُ آلاف شيخ . قال المعلِّمُ عَقِبَهُ : « وهذا غيرُ بعيد إذا عَدَدْنَا كُلَّ من حَكَى عنه أبو سعيد حكايةً شيخاً له » . انتهى .

قال عبد الفتاح : وهو كذلك ، وهذا هو المَعْنَى من كلامهم حينما يذكرون كثرةَ الشيوخ ، فهم يَقْصِدُونَ بهم شيوخَ التلقي ، لا شيوخَ الدراسة والمُثاقَبة بالركب . ولا شك أن الرحلة في زمن الحافظ الذهبي الذي توفي سنة ٧٤٨ ، قد ضاق نطاقُها ، وقلَّ أهلُها وتقلَّصَتْ آفاقُها ، فالظاهر أن الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى قاسَ ذلك الخبر ، على مشهوره من النظر ، وإلا لورَّجَعَ بذاكرته إلى أهل القرون المتقدمة عليه ، لرأى الشواهد تُلَوِّ الشواهد تشهد لما ذكروه ، وثبت ما قالوه .

فقد نُقِلَ هو في كتابه « تذكرة الحفاظ » ١ : ٣٩٤ ، في ترجمة الحافظ المسند (مسلم بن إبراهيم الفراهيدي البصري) ، المتوفى سنة ٢٢٢ ، ما يلي : « وقال أبو إسماعيل الترمذي - هو الحافظ محمد بن إسماعيل شيخ أبي عيسى الترمذي صاحب « الجامع » - : سمعته يقول : كتبْتُ عن ثمانٍ مِثَّةَ شيخ ، ما جُزْتُ الجسر » . انتهى . وقال الخزرجي في « الخلاصة » في ترجمته : « كَتَبَ عن سبعين امرأة » . انتهى . فإذا كان هذا الذي لم يَخْرُج من بلده الصغير (البصرة) ، قد كَتَبَ عن ثمانٍ مِثَّةَ شيخ ، وقد يكون منهم السبعون شيخاً أَوْ يَزِدُّنَ عليهم ، وهو الظاهر ، لقول تلميذه الإمام أبي داود صاحب « السنن » : « كَتَبَ مسلم بن إبراهيم عن قريبٍ من ألف شيخ ، ما رَحَلَ إلى أحد » . كما في « تهذيب التهذيب » ١٠ : ١٢٢ ، فكيف بالذي طَوَّفَ آفاقَ الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، وعاش على ذلك ٧٤ عاماً ، فلا يُسْتَعَدُّ أن يكون له من الشيوخ ٣٦٠٠ شيخ ، والله تعالى أعلم .

بل هو ممكن وواقع ، ولا غرابة في ذلك أبداً ، فهذا شيخ الذهبي ورفيقه وصاحبه ، المتأخِرُ الزمان عن أبي سَعْدِ السُّنَّان ، الإمامُ الحافظُ عَلَمُ الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي ، المولود سنة ٦٦٥ ، والمتوفى سنة ٧٣٩ رحمه الله تعالى ، قد كان له ثلاثة آلاف شيخ ، ودَوَّنَ البرزالي أسماءَهم في « معجم شيوخه » ، كما ذكر ذلك الذهبي نفسه في كتابه « معجم الشيوخ » ومَدَحَ كتابَ « معجم الشيوخ » للبرزالي بقوله :

وسبعون سنة ولم يُدخِل إصْبَعَهُ فِي قَصْعَةِ إِنْسَانٍ^(١) ، ولم يكن لأحدٍ عليه مِنَّةٌ ولا يَدٌ فِي حَضْرِهِ ولا سَفَرُهُ .

مات ولم يكن له مَظْلَمَةٌ ، ولا تَبِعَةٌ من مال ولا لِسَان ، كانت أوقاته موقوفةً على قراءة القرآن والتدريس والرواية والإرشاد والهداية والعبادة ، خَلَّفَ ما جَمَعَهُ من الكتب طُولَ عمره وَقَفًا على المسلمين . كان تاريخَ الزمان ، وشيخَ الإسلام ، وبقيةَ السَلَفِ والخَلَفِ .

مات ولا فائتُهُ في مرضه فَرَضَ ولا واجبٌ من طاعة الله تعالى من صلاةٍ وغيرها ، ولا سال منه لأعاب ، ولا تَلَوْتُ له ثياب ، ولا تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وكان يُجَدِّدُ التوبة ، وَيُكثِّرُ الاستغفار ، وَيَقْرَأُ القرآن . وصَنَّفَ كتباً كثيرة ، ولم يتأهل قط ، وَمَضَى لسبيله وهو يَتَسَمُّ كالغائب يَقْدُمُ على أهله ، وكالمملوك المُطِيع يَرْجِعُ إلى مالِكِهِ .

مات بالرِّيِّ ليلة الرابع والعشرين من شعبان سنة ٤٤٥ ، ودُفِنَ بجبل طَبْرَك ، بقرب الفقيه الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمهما الله تعالى .

إِنْ رُمَتْ تَفْتِيَشُ الْخَزَائِنِ كُلِّهَا وَظُهُورُ أَجْزَاءِ خَوَاتِ وَغَوَالِي وَنُعُوتُ أَشْيَاخِ الْوُجُودِ وَمَا زَوَّوا طَالِغِ أَوْ اِشْمَعِ مُعْجَمِ الْبِرْزَالِي نَقَلَ ذَلِكَ الدكتور بشار عواد معروف ، في تقديمه لكتاب « سِير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي ، ص ٣٦ .

والحقُّ يُقال : إِنَّ الحافظَ الذهبي رحمه الله تعالى ، ذَكَرَ بِمِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ أَوْ نَحْوَهُ مِنْ كَثْرَةِ الشُّبُوح ، فِي تَرَاجِمِ كَثِيرٍ مِنْ تَرْجَمَ لَهُمْ فِي « تَذَكُّرَةِ الْحِفَاظِ » ، وَلَمْ يُعَقِّبْ عَلَيْهِ أَوْ يَنْقُدهُ بِشَيْءٍ كَمَا رَأَيْتُ بِمِثَالَيْنِ مِنْهُ ، فَلَعَلَّ الَّذِي دَعَاهُ إِلَى التَّقْدِيرِ هُنَا شِدَّةُ كِرَاهِيَتِهِ لِلْمَعْتَزِلَةِ ، وَأَبُو سَعْدِ السَّمَّانِ شَيْخُ الْمَعْتَزِلَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَهَذَا مِنْ هَذَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

(١) اسْتَفْدَتْ مِنْ هَذَا النَّصِّ : (أَتَى عَلَيْهِ أَرْبَعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً وَلَمْ يُدْخَلْ . . .) تَحْدِيدُ سَنَةِ وُلَادَتِهِ ، وَفَاتِ الْعَلَمَةِ الزُّرْكَلِيِّ رحمه الله تعالى فِي « الْأَعْلَامِ » الْاسْتِفَادَةُ مِنْهُ ، فَلَمْ يَذْكُرْ تَارِيخَ وُلَادَتِهِ !

١١ - وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الْقُرَآئِبِ

الحافظ الأنماطي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد البغدادي ، قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٢٨٢ ، في ترجمته : « الحافظُ العالمُ محدِّثُ بغداد ، ولد سنة ٤٦٢ ، ومات سنة ٥٣٨ ، عن ٧٦ سنة .

سَمِعَ أبا محمد بن هَزَارْمُرد الصَّرِيفِيَّ ، وأبا الحسين بن النُّقُور ، وأبا القاسم عبد العزيز بن علي الأنماطي ، وعلي بن أحمد البُنْدَار ، فمن بعدهم . وَكَتَبَ الْكُتُبَ ، وَسَمِعَ الْعَالِيَّ وَالنَّازِلَ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَى ابْنِ الطُّيُورِيِّ - الْمُبَارَكِ بن عبد الجبار - جَمِيعَ مَا عِنْدَهُ .

رَوَى عَنْهُ ابْنُ نَاصِرٍ ، وَالسَّلْفِيُّ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ ، وَأَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ ، وَأَبُو سَعْدٍ السَّمْعَانِيُّ ، وَأَبُو الْفَرَجِ بن الجوزي ، وَأَبُو أَحْمَدَ بن سَكِينَةَ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بن الْأَخْضَرِ ، وَأَحْمَدُ بن أَزْهَرَ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بن مَيْنَا ، وَأَحْمَدُ بن الدُّبَيْقِيِّ ، وَعَبْدُ الْوَهَّابِ بن أَحْمَدَ بن هُدْبَةَ خَاتَمَةَ أَصْحَابِهِ .

قال السمعاني : هو حافظ ثقة متيقن واسع الرواية ، دائم البشر ، سريع الدمعة عند الذكر ، حسن المعاشرة . جَمَعَ الْفَوَائِدَ وَخَرَّجَ التَّخَارِيجَ ، لَعَلَّهُ مَا بَقِيَ جَزْءٌ مَرُورِيٌّ إِلَّا وَقَدْ قَرَأَهُ وَحَصَلَ نُسخَتُهُ ، وَنَسَخَ الْكُتُبَ الْكِبَارَ ، مِثْلَ

« الطبقات » لابن سعد ، و « تاريخ الخطيب » ، وكان متفرغاً للحديث ، إماً أن يُقرأ عليه أو ينسخ شيئاً ، وكان لا يُجوز الإجازة على الإجازة ، وصنف في ذلك . قرأت عليه « الجعديّات » ، و « مسند يعقوب القسوي » ، والذي عنده من « مسند يعقوب السدوسي » ، و « انتقاء البقال » على المُخلص .

قال السلفي : كان عبد الوهاب رفيقنا : حافظاً ثقةً ، لديه معرفة جيدة . قال ابن ناصر : كان بقیة الشيوخ ، سمع الكثير ، وكان يفهم ، ثقةً ، مضى مستوراً ، ولم يتزوج قط . وقال ابن الجوزي : كنت أقرأ عليه وهويكي ! فاستفدت بركاته أكثر من استفادتي بروايته ، وكان على طريقة السلف ، انتفعت به ما لم أنتفع بغيره ، رحمه الله تعالى .

١٢ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الإمام أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الْخُوَارَزْمِيُّ ، الملقَّبُ : فَخْرَ خُوَارَزْمٍ ، وجارَ الله ، لمجاورته بمكة المشرفة زماناً ، ولد في ٢٧ من رجب سنة ٤٦٧ بزمخشر : قرية من قرى خُوَارَزْمٍ ، وتوفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨ بـجُرْجَانِيَّةِ خُوَارَزْمٍ ، عن ٧١ سنة رحمه الله تعالى .

جاء في ترجمته في « نزهة الألباء » لابن الأنباري ص ٣٩١ - ٣٩٣ ، و« معجم الأدباء » لياقوت الحموي ١٩ : ١٢٦ - ١٣٥ ، و« إنباه الرواة » للقيطبي ٣ : ٢٦٥ - ٢٧٢ ، و« الوفيات » لابن خلكان ٢ : ٨١ - ٨٢ ، و« لسان الميزان » لابن حجر ٦ : ٤ ، و« طبقات المفسرين » للسيوطي ص ١٢٠ - ١٢١ ، و« الزمخشري » للدكتور أحمد الحوفي ما يلي :

لقي في بلاده وغيرها : الأكابر والأفاضل ، ودخل خراسان ، وورد بغداد غير مرة ، والتقى بكبار علمائها في ذاك العصر الذي كانت فيه بغداد غنية بالعلماء الكبار والأئمة المشهورين .

أخذ اللغة والنحو والأدب في خوارزم عن شيخه أبي مُصَرِّم محمود بن جرير الضَّبِّي الْأَصْبَهَانِي ، ثم الخوارزمي ، الذي كان يُلقَّبُ : فريد العصر ، وكان وحيد دهره وأوانه في علم اللغة والنحو والأدب والطب ، ويضربُ به

المَثَلُ في أنواع الفضائل ، وقد أقام في خوارزم مُدَّةً ، وانتفع الناسُ بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخرَّج به جماعة من الأكابر في اللغة والنحو والأدب ، منهم الزمخشري .

وأبو مُضَرَّ هذا هو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشري تلميذه المتعلق به .

وقد توسَّم أبو مُضَرَّ في تلميذه الذكاء والجِدُّ ، والجدارة بأن يَخْلُقَه ، فتعهده بعلمه ، ورعاه بماله ، يَدُلُّ على هذا قولُ الزمخشري لِنِظام المُلْك :

إِلَيْكَ نِظامُ المُلْكِ شِكَاوِي فَاسْتَمِعْ إِلَى بَتِّ مَجْدُوذِ المَعَايِشِ ضَنْكِهَا
وَلَوْ لَمْ يَلِ الضُّبِّيُّ عَنِّي عِرَاكَهَا لَنَالَتْ يَدُ البَلَوَى أُدِيمِي بَعْرِكَهَا
وكان الزمخشري محباً لأستاذه أبي مُضَرَّ ، وفيأ له ، فلما مات سنة ٥٠٧ ، رثاه بقوله :

فَقُلْتُ لَطَبِي : هَاتِ كُلَّ ذَخِيرَةٍ فَمِنْ أَجَلِهِ مَا زِلْتُ أَدْخِرُ الذُّخْرَا
وَأُبْرِزُ كَرِيمَاتِ القَوَافِي وَغُرَّهَا فَمَنْه اسْتَفَدْنَا العِلْمَ والنَّظْمَ والشُّرَا
ورثاه أيضاً بقوله ، وهو من كريم الشعر :

وَقَائِلَةٍ : مَا هَذِهِ الدَّرَرُ الَّتِي تَسَاقُطُ مِنْ عَيْنِكَ سِمَاطِينَ سِمَاطِينَ ؟
فَقُلْتُ : هُوَ الدَّرُّ الَّذِي كَانَ قَدْ حَشَا أَبُو مُضَرٍّ أُذُنِي تَسَاقُطَ مِنْ عَيْنِي !
وَأَخَذَ الزَّمَخْشَرِيُّ الأَدَبَ أَيْضاً عَنْ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ المَظْفَرِ
النَّيْسَابُورِيِّ^(١) ، وَسَمِعَ الحَدِيثَ ببغداد من شيخ الإسلام أبي منصور نصرٍ

(١) هكذا هو في «معجم الأدباء» ١٩ : ١٢٧ ، في ترجمة الزمخشري ، وخطأه =

الحارثي ، ومن أبي سَعْد الشَّقَانِي النيسابوري ، ومن المحدث أبي الخطّاب نصر بن أحمد بن عبد الله بن البَطَر ، المتوفى سنة ٤٩٤ (١) .

= الدكتور أحمد محمد الحوفي في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ ورأى أن الصواب فيه : (أبو علي الحسن بن المظفر الأصبهاني) ، استناداً منه إلى ما جاء في « معجم الأدباء » نفسه ٩ : ١٩١ . قال الدكتور الحوفي : « وهو شيخ الزمخشري قبل أبي مضر ... » انتهى .

وقد سها الدكتور الحوفي في هذا ، وغَفَلَ غَفْلَةً فاحشة ! ففي « معجم الأدباء » ٩ : ١٩١ ، في ترجمة (أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري) ما يلي : « مات في الرابع من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة » . انتهى . والزمخشري ولد سنة ٤٦٧ ، أي بعد وفاة ابن المظفر المذكور بخمس وعشرين سنة ، فكيف يأخذ عنه ويكون ابنُ المظفر شيخه وقد مضى على وفاته ٢٥ سنة قبل ولادة الزمخشري ؟ !

نعم قد وقع في ترجمة ابن المظفر المذكورة ما يلي : « كان مؤدب أهل خوارزم في عصره ، ومخرّجهم ، وشاعريهم ، ومقدّمهم ، والمشار إليه منهم ، وهو شيخ أبي القاسم الزمخشري قبل أبي مضر » انتهى .

ولكن كيف يستقيم هذا ؟ ووفاء ابن المظفر المذكور محدّدٌ بسنة ٤٤٢ في رمضان ١٩ ؟ ويُعزّزُ صحة هذا التاريخ لسنة وفاة ابن المظفر ، أنه مدّح الشيخ الرئيس أبا علي ابن سينا ، وكتب إليه رَقْعَةً ، كما في ترجمته في « معجم الأدباء » ٩ : ١٩٣ ، وابن سينا توفي سنة ٤٢٨ ، فكيف يتفق هذا لابن المظفر مع تلمذة الزمخشري عليه ؟ فلعل جملة (وهو شيخ أبي القاسم الزمخشري) مقحمة من بعض الواقفين على الكتاب خطأ وسهواً ، والله أعلم .

(١) ضبطه بالبَطَر ككتيف صاحب القاموس في (بطر) ، وترجم له شارحه الزبيدي في « تاج العروس » ٣ : ٥٢ ، وذكر أن ولادته سنة ٣٩٨ ، وأنه توفي في ١٦ ربيع الأول سنة ٤٩٤ .

ووقع في كتاب « الزمخشري » للدكتور الحوفي ص ٤٩ قوله : « وسَمِعَ الزمخشريُّ من أبي الخطاب بن أبي البطر . كما في « طبقات المفسرين » للسيوطي ص ٤١ ، ولم أَعثر له على ترجمة في كتب التراجم والطبقات » . انتهى كلام الحوفي . وفيه : تحريفٌ في نسب أبي الخطاب ، فهو (ابنُ البَطَر) بدون إقحام (أبي) ، كما في « طبقات المفسرين » و« التاج » ، وفيه : أن الزبيدي ترجم له في « تاج العروس » ، ووصفه بالقاري المحدث ، وأُرْخَ لولادته ووفاته ، ولأخيه أبي الفضل محمد بن أحمد .

ولقي في بغداد أيضاً الإمام الفقيه أبا الحسين أحمد بن علي الدامغاني الحفيد ، المتوفي سنة ٥٤٠هـ^(١) .

قال الإمام أبو اليَمن زيد بن الحسن الكِندي البغدادي ثم الدمشقي ، النُحوي الأديب : كان الزمخشريُّ أعلمَ فضلاء العجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها ، وبه خُتِمَ فضلاؤهم ، قَدِمَ علينا ببغداد سنة ٥٣٣هـ^(٢) ، ورأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجَوَالقي مرتين ، قارئاً عليه

(١) كما قاله الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، في تعليقه على « إنباه الرواة » للقفطي ٣ : ٢٦٨ ، وللدامغاني هذا ترجمة في كتاب « الجواهر المضية في طبقات الحنفية » للقرشي ١ : ٨٣ .

ووقع من الدكتور الحوفي قوله في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ « الدامغاني هو قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني ، ولي قضاء بغداد مدة ، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم ، وكان فقيهاً فاضلاً ، توفي ببغداد سنة ٤٩٨ كما في الأنساب للسمعاني » . انتهى قول الحوفي .

وفيه تحريف ثم خطأ فاحش ! أما التحريف فتاريخ وفاته للدامغاني هذا سنة ٤٩٨ ، وصوابه سنة ٤٧٨ كما في « الأنساب » للسمعاني ٥ : ٢٩٠ و « الجواهر المضية » للقرشي ٢ : ٩٧ . وأما الخطأ الفاحش فهو أن الدامغاني هذا ولد سنة ٣٩٨ ، ومات سنة ٤٧٨ ، فيستبعد أن يأخذ الزمخشريُّ عنه ، لأنه عند وفاة هذا الدامغاني كانت سنُّ الزمخشريِّ إحدى عشرة سنة ، وكان آنذاك طفلاً في بلده خوارزم لم يبارحها . فالدامغاني الذي أخذَ الزمخشريُّ عنه هو المذكور أعلاه .

(٢) وقع من الدكتور الحوفي في كتابه « الزمخشري » ص ٥٠ قوله : « وقال القفطي في « إنباه الرواة » ٣ : ٢٧٠ إنَّ الزمخشري قَدِمَ علينا ببغداد سنة ٥٣٣ ، ورأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجوالقي قارئاً عليه بعضُ كتبه من فواتحها ، ومستجيراً لها » . انتهى كلام الدكتور الحوفي .

وفيه خطأ فاحش جداً ، فإن القفطي ولد سنة ٥٦٨ ، وتوفي سنة ٦٤٦ ، فكيف يحضُر مجلس من كان موجوداً سنة ٥٣٣ ؟ !

وسبَّبَ هذا الخطأ الفاحش متابعهُ الدكتور الحوفي لخطأ الأستاذ الفاضل محمد أبو الفضل إبراهيم ، محقق كتاب « إنباه الرواة » للقفطي ، فقد أثبتَ هناك في حكاية لقاء الزمخشري بالجوالقي لفظ (قلت) ، فعاد الكلام للقفطي ، والصواب أن يُثبتَ هناك لفظ =

بعض كتب اللغة من فواتحها ، ومستجيزاً لها ، لأنه لم يكن له - على ما عنده من العلم - لقاء ولا رواية . نقله القاضي ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١ : ١٩٦ ، في ترجمة أبي اليمن الكندي المذكور^(١) .

قال أبو البركات ابن الأنباري في « نزهة الألباء » ص ٣٩٣ ، في ترجمة الزمخشري : « وقَدِمَ إلى بغداد للحج ، فجاءه شيخنا الشريف ابن الشَّجْري مهتأً له بقدمه ، فلما جالسه أنشده الشريف فقال :

كانت مُساءلةَ الرُّكبان تُخْبِرُنِي عن أحمدَ بنِ دُوادٍ أطيَّبَ الخبرَ
حتى التقينا فلا والله ما سَمِعْتُ أَذُنِي بأَحْسَنَ مما قد رأى بَصْرِي^(٢)
وأنشده أيضاً :

وأستَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقائِهِ فلما التقينا صَغُرَ الخَبَرُ الخُبْرُ^(٣)
وأثنى عليه ، ولم يَنْطِقْ الزمخشريُّ حتى فَرَّغَ الشريفُ من كلامه .
فلما فَرَّغَ شَكَرَ الشريفَ وعظَّمه وتصاغَرَ له ، وقال : إنَّ زَيْدَ الخيلِ ،

= (قال) ، كما جاء في نسخة (ب) ، ليعود الكلام إلى أبي اليمن الكندي كما نقلته آنفاً عن ابن خلكان ، فخطأ الأستاذ محمد أبو الفضل : أَوْقَعَ الدكتور الحوفي في الخطأ متابعاً ! فتنبه له .

(١) وكانت سِنُ الزمخشري آنذاك ٦٦ سنة ، فكان إماماً ملأت شهرته آفاق الدنيا ، وكثر تلامذته والأخلاق عنه أيما كثرة ، ومع هذا لم يأنف أن يجلس بين يدي الإمام الجواليقي في بغداد جلسة الطالب المستفيد المستزيد ، وهكذا يتبدى من هذا الخبر : احترافُ الزمخشري بالعلم وتحصيله والاستزادة منه عن أهله الكبار ، ولو كان هو كبيراً مثلهم أو أشهر منهم .

(٢) انظر ما قاله القاضي ابن خلكان حول هذين البيتين ، في « وفيات الأعيان » ١ : ١١٣ ، في ترجمة (أبي علي جعفر بن فلاح الكتامي) .

(٣) البيت للممتني في « ديوانه » ٢ : ١٥٥ .

دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَحِينَ بَصَرَ بِالنَّبِيِّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالشَّهَادَةِ ، فَقَالَ لَهُ
الرَّسُولُ ﷺ : يَا زَيْدَ الْخَيْلِ ، كُلُّ رَجُلٍ وُصِفَ لِي وَجَدْتُهُ دُونَ الصُّفَةِ ، إِلَّا
أَنْتَ فَإِنَّكَ فَوْقَ مَا وُصِفْتَ .

وكذلك الشريف ، ودعا له وأثنى عليه . فتعجب الحاضرون من
كلامهما ، لأن الخبر كان اليق بالشريف ، والشعر اليق بالزمخشري .

وقال الأديب المَقْرِي في « أزهار الرياض في أخبار عياض » ٣: ٧٧
« وذكر الشيخ أبو حيان - الأندلسي - في باب القَسَم ، أن الزمخشري رَحَلَ
من خوارزم إلى مكة قبل العشرين والخمسين مئة ، لقراءة « كتاب سيويه »
على رجل من أصحابنا من أهل الأندلس ، يُعَرَفُ بِأبي بكر عبد الله بن طلحة
الْيَابِرِي الإشبيلي الأندلسي ، وكان مجاوراً بمكة ، عالماً بـ « الكتاب »
وغیره ، وله تصانيف تُقرأ عليه .

قال الوائشريشي : وكان الْيَابِرِي من أهل المعرفة بالفقه وأصوله ،
ماهرًا في النحو ، حافظًا للتفسير ، قائمًا عليه ، وله مصنفات في التفسير وفي
الفقه وأصوله ، واستوطن مصر وقتاً ، ثم رحل إلى مكة فجاور فيها ، إلى أن
توفي بها رحمه الله تعالى ، وكان حيًّا سنة ٥١٦ هـ ، وكانت له معرفة تامة بكتاب
سيويه ، ويسببه ارتحل إليه الزمخشري من خوارزم لقراءته عليه . انتهى .

وقد أقام الزمخشري بخوارزم تُضَرَّبُ إليه أكباد الإبل ، وتُحَطُّ بفنائمه
رحال الرجال ، وتُحدَى باسمه مطايا الآمال ، وقرأ عليه واستجازه غير واحد
من العلماء ، ومن استجازه الحافظ السلفي ، فأجازه الزمخشري إجازة تدل
على كمال تواضعه ، وسُمِّوْ نُبَيْلَه مع العلماء الفضلاء ، وانظر الاستجازه
الأولى والثانية منه ، ثم الإجازة من الزمخشري له ، في « أزهار الرياض »
٣: ٢٨٣ - ٢٩٣ ، ففيها فنون من الآداب والمعارف .

قال القفطي في «إنباء الرواة» ٢٦٥:٣ - ٢٦٦ ، في ترجمة الزمخشري : « وكان ممن يُضَرَّبُ به المَثَلُ في علم الأدب والنحو واللغة ، وصنَّفَ التصانيف في التفسير ، وغريب الحديث ، والنحو ، وغير ذلك . ودَخَلَ خراسان ، ووَرَدَ العراق ، وما دخل بلداً إلا اجتمعوا عليه ، وتَلَمَّذُوا له ، واستفادوا منه ، وكان علامة الأدب ، ونسابة العرب - لا تشي أنه عَجَمِي - ، أقام بخوارزم ، ثم خرج منها إلى الحج ، وأقام برهة من الزمان بالحجاز ، حتى هبَّتْ على كلامه رياحُ البادية ، ووَرَدَ مناهلُ العربِ العاربة ، ثم انكفأ راجعاً إلى خوارزم » .

وكان إماماً في التفسير ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والبيان ، واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء ، وجودة الفريضة ، متفتناً في علوم شتى ، حنفي المذهب ، معتزلياً مجاهراً بذلك ، وكان إذا قصَّد صاحباً له ، واستأذَنَ عليه في الدخول يقول له : أبو القاسم المعتزلي بالباب .

وله إنشاء رفيع ، وسجع بديع ، فانظر من كتبه : « أطواق الذهب » ، و« نوايخ الكلم » ، و« المقامات » ، وسجعات في كتابه « أساس البلاغة » ، وغيرها ، ففيها المطرِبُ المُعْجِبُ ، كما له شعر كثير ، بَلَغَ ديواناً كبيراً ، وفي شعره الفصاحة والبلاغة والأصالة ، والمعاني المبتكرة ، ومن ذلك الأبيات التي تقدَّمت في رثاء شيخه أبي مُضَر ، ومن شعره المناسب لهذا المقام قوله :

العلمُ للرحمنِ جَلُّ جَلَّالِهِ وَسِوَاهُ فِي جَهْلِهِ يَتَقَمَّمُ^(١)

(١) في « القاموس » في مادة (قَمَم) : « تَقَمَّم : ذَعَبَ فِي الْمَاءِ ، وَغَمَرَ حَتَّى غَرِقَ ! » . انتهى . ووقع في « معجم الأدباء » ١٩ : ١٢٩ ، بلفظ (يتغمغم) أي بالغين ، وهو تحريف فاعرفه . كما وقع فيه تحريف (يحيى) الآتي في البيت الثاني إلى (يَشَى) . وهو تصحيف فاجتنبه .

ما للشراب وللعلوم وإنما يحيى ليَعْلَمَ أنه لا يَعْلَمُ !
ومن شعره أيضاً قوله :

إذا التَصَقْتُ بالبحر في العلم رُكْبَتِي بَرُكْبَتِي نَحْرِيرٌ عَلَى الْجَدِّ دَابِ
فإن دام لي عونُ الإله على الذي أعانيه من فضلٍ وِبرٍ وآدابِ
وإن نظرتُ عَيْني على الودِّ والصفَا مع البرِّ والتقوى نَوَاطِرَ أَحْبَابِ
فقلْ لملوك الأرض: يَلْهُوْا وَيَلْعَبُوا فذلك لَهْوِي ما حَيِّتُ وتَلْعَابِي

ومن شعره في اختياره العزوبة على الزواج وقد التمس فيه العذر
لنفسه :

تَصَفَّحْتُ أولادَ الرجالِ فلم أَكْذُ أَصَادِفُ من لا يَفْضَحُ الأمُّ والأبَا
رأيتُ أباً يَشْقَى لتربيةِ ابنه وَيَسْعَى لكي يُدْعَى مُكِيناً ومُنْجِبا
أراد به النشءَ الأغرَّ فما دَرَى أيوليه جِجراً أم يُعْلِيه مَنكِبا
أخو شِقْوَةٍ ما زال مركبَ طفله فأصْبَحَ ذاك الطفلُ للشَّرِّ مَرْكَبَا^(١)
لذلك تَرَكْتُ النُّسْلَ واختَرْتُ سِيرَةً مَسِيحِيَّةً أحياناً بذلك مَذْهَبَا

ولا شك أن اعتذاره هذا بعيد عن القبول ، وقد يكون دفعه إليه ما شهدته
من بعض الأبناء في معاملة بعض الآباء ، ولكن ذلك لا يُسَوِّغُ التثاؤم
بالأولاد ، ولا الكراهية لوجودهم ، فهم رياحينُ الحياة ، وأنصارُ الدين ،
وحُمَالُ الشيخوخة ، وأوتادُ البقاء للنوع الإنساني^(٢) .

(١) وقع في الأصل : (للناس) . ويَبْدُو أنه محرف عن (الشر) ، فأنبئه
كذلك ، ونبّهت .

(٢) والطف من اعتذار الزمخشري هذا ، ما اعتذره الإمام الأديب اللغوي ابن مكي
الصِّقْلِيُّ المازَرِيُّ (عمر بن خلف) ، المتوفى سنة ٥٠١ هـ رحمه الله تعالى ، وهو صاحبُ
الكتاب النفيس المطبوع : « تنقيف اللسان وتلقيح الجنان » . فقد قال كما في كتاب « العرب
في صِيقَلِيَّة » للدكتور إحسان عباس ص ١٩٥ :

ومن هذا المشرب السابق قوله :

كَأَنَّكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا أَنْ مِنْ لَهُ عِيَالٌ شَقِيٌّ دَهْرَهُ لَيْسَ يُفْلِحُ
قَبِيحٌ بِمِثْلِي وَالْبَنُونَ - كَمَا أَرَى - جُنُودٌ فَسَادٍ لَيْسَ فِي الْأَلْفِ مُصْلِحٌ
إِذَا ارْتَكَبَ الْإِبْنُ الْخَلِيعَ فَضِيحَةٌ فَذَاكَ لِعَمْرُ اللَّهِ لَلْأَبِ أَفْضَحُ
وَكُلُّ صَنِيعٍ لَيْسَ لِلنَّفْعِ جَالِبًا وَجَرُّ وَجْهِ الضَّرِّ، فَالْتَرُكُ أَرْوَحُ
وَقَدْ اعْتَبَرَ الزَّمْخَشَرِيُّ مَوْلَفَاتِهِ وَأَثَارَهُ الَّتِي صَنَفَهَا : أَبْرَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَبْنَاءِ ،
وَأَفْضَلُ عَلَيْهِ مِنَ الذَّرِيَّةِ وَالْأَوْلَادِ رَاحَةً وَحُسْنَ عَاقِبَةٍ ، فَقَالَ :

وَحَسْبِي تَصَانِفِي وَحَسْبِي رَوَاتُهَا بَيْنَ بِهِمْ سَيِّئَتْ إِلَيَّ مَطَالِبِي
إِذَا الْأَبُ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ ابْنِ عُقُوقِهِ وَلَا أَنْ يَغُتَّقَ الْإِبْنُ بَعْضُ النَّوَائِبِ
فَلِإِنِّي مِنْهُمْ آمِنٌ وَعَلَيْهِمْ ، وَاعْقَابَهُمْ أَرْجُوهُمْ لِلنَّوَائِبِ
وَيَكْرُرُ هَذَا الْمَعْنَى بِأَسْلُوبٍ آخَرَ وَعَلَى قَافِيَةٍ ثَانِيَةِ فَيَقُولُ :

بَنِيَّ - فَاعْلَمْ - بَنَاتٌ فِكْرِي خَصَانُهُنَّ أُمُّهُ الدَّرَاسَةُ^(١)
أَبْنَاءٌ صِدْقٍ لَهُمْ نَفُوسٌ وَصِفَنَ بِالْفَضْلِ وَالنَّفَاسَةِ
حُمَاةٌ عِرْضِي مُحَصَّنُوهُ فِي كَتِفِ الصَّوْنِ وَالْجِرَاسَةِ
بِرٌّ صَرِيحٌ بَلَا عُقُوقِي خُلُقٌ صَحِيحٌ بَلَا شَكَاةِ
مَا نَسَلُ قَلْبِي كَنَسَلِ صُلْبِي مِنْ قَاسٍ رُدُّ لَهُ قِيَاسُهُ
كَمْ بَيْنَ ذِي مَسَلِكٍ طَهُورٍ وَسَالِكٍ مَسَلِكِ الْخَسَاسَةِ
مِنْ مَاسٍ أَبْنَاءَهُ فَلِإِنَّا لِهَؤُلَاءِ الْبَنِينَ مَاسَةٌ

« من كان منفرداً في ذا الزمان فقد نجا من الدُّلِّ والأحزان والقلقي
نزويجنا كركوب البحر ثم إذا صرنا إلى ولدٍ، صرنا إلى الفَرْقِ

(١) وقع في كتاب « الزمخشري » للدكتور الحوفي ص ٥٧ ، هكذا :

بَنِيَّ فَاعْلَمْ بَنَاتٌ فِكْرِي خَصَانُهُنَّ أُمُّهُ الدَّرَاسَةُ .
وَالصَّوَابُ فِيهِ عِنْدِي كَمَا أَثْبَتَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

هذا ، وقد بلغت أبناء فكره وبنات قلمه : نحو الخمسين مؤلفاً ، أذكرُ هنا أهمّها ، وقد استوفاهما تعداداً وتحليلاً الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد محمد الحوّفي ، في كتابه « الزمخشري » ص ٥٦ - ٦٣ .

فمن بنات قلمه وأبناء فكره الباقيات بعده - وقد انقطع نسل كثير من الأباء الفضلاء وانطوى ذكّهم - :

- ١ - الكشف ، في تفسير القرآن . ٢ - الفائق في غريب الحديث .
- ٣ - نُكَّت الأعراب في غريب الإعراب ، إعراب القرآن . ٤ - متشابه أسماء الرواة . ٥ - مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . ٦ - الكلم النوايغ أو : نوايغ الكلم ، في الأدب والأخلاق . ٧ - أطواق الذهب ، في المواعظ . ٨ - نصائح الكبار . ٩ - نصائح الصغار . ١٠ - المقامات الأدبية . ١١ - نزهة المستأنس . ١٢ - الرسالة الناصحة . ١٣ - رسالة المَامة .
- ١٤ - الرائض في الفرائض . ١٥ - معجم الحدود ، في الفقه . ١٦ - المنهاج ، في الأصول . ١٧ - ضالّة الناشد - ١٨ - الأنموذج ، في النحو . ١٩ - المُفَصَّل ، في النحو . ٢٠ - المُفَرَّد والمؤلف ، في النحو . ٢١ - صميم العربية . ٢٢ - الأمالي ، في النحو . ٢٣ - أساس البلاغة ، في اللغة . ٢٤ - جواهر اللغة . ٢٥ - كتاب الأجناس . ٢٦ - مقدّمة الأدب ، في اللغة . ٢٧ - كتاب الأسماء ، في اللغة . ٢٨ - القسطاس ، في العروض . ٢٩ - شرح مقاماته . ٣٠ - سوائر الأمثال . ٣١ - المُستَقْصى في الأمثال . ٣٢ - ربيع الأبرار ، في الأدب والمحاضرات . ٣٣ - تسليّة الضّرير . ٣٤ - رسالة الأسرار . ٣٥ - أعجَبُ العجب في شرح لامية العرب . ٣٦ - شرح المفصّل . ٣٧ - ديوان التمثيل . ٣٨ - ديوان خطب . ٣٩ - ديوان رسائل .
- ٤٠ - ديوان شعر . ٤١ - شرح شواهد كتاب سيبويه . ٤٢ - كتاب الجبال والأمكنة . ٤٣ - شافي العي من كلام الشافعي . ٤٤ - شقائق النعمان في حقائق

النعمان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة . ٤٥ - الأحاجي النحوية . وغيرها .

هذا ، وقد حذّر الشيخ الإمام ابن أبي جَمْرَةَ الأندلسي ، من قراءة كتب الزمخشري ، للعارف بدسائس الاعتزال ، لأنه لا يَأْمَنُ الغفلة ، فتسبِقُ إليه تلك الدسائس ، ولغير العارف أيضاً ، لأن تلك الدسائس تَسْبِقُ إليه وهو لا يَشْعُرُ ، فيصير معتزلياً . نَقَلَ هذا عنه الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » ٦ : ٤ ، في ترجمة الزمخشري ، ثم قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :

« وقد كان الزمخشري في غاية المعرفة بفنون البلاغة وتصرف الكلام ، وكتابه : « أساس البلاغة » من أحاسين الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبَيَّن الحقيقة من المجاز في الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيباً .

وكتابه : « الفائق في غريب الحديث » من أنفس الكتب ، لجمعيه المتفرّق في مكان واحد ، مع حُسْن الاختصار وصِحّة النقل .

وله كتاب « المفضل » في النحو مشهور . ورأيت له مصنفاً في (المشتبه) ، في مجلد واحد ، وفيه فوائد جليّة .

وأما « التفسير » فقد أُلْعِجَ الناس فيه ، وَبَحَثُوا عليه ، وَيُنَوِّدُونَهُ ، وأفردوها بالتصنيف ، ومن رَسَخَتْ قدمه في السُّنَّة ، وقرأ طَرَفاً من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره ، ولم يَضُرَّهُ ما يُخَشَى من دسائسه ، عفا الله عنه . انتهى .

١٣ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الإمام النحوي اللغوي المفسر المقرئ المحدث الأديب أبو محمد المعروف بابن الخشاب ، عبد الله بن أحمد بن الخشاب الحنبلي البغدادي ، المولود سنة ٤٩٢ ، والمتوفى سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى . جاء في ترجمته في « معجم الأدباء » ١٢ : ٤٧ - ٥٣ و « إنباء الرواة » ٢ : ٩٩ - ١٠٣ و « وفيات الأعيان » ١ : ٢٦٧ و « ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب ١ : ٣١٦ - ٣٢٣ ما يلي :

كان أعلم أهل زمانه بالنحو ، حتى يقال : إنه كان في درجة أبي علي الفارسي . وكانت له معرفة جيدة بالتفسير والحديث والفرائض واللغة والشعر والعربية والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يدٌ حسنة . وكان حافظاً لكتاب الله تعالى ، قد قرأه بالقراءات الكثيرة .

أخذ النحو عن أبي بكر بن جوامرْد القَطَّان ، ثم عن أبي الحسن علي بن زيد الفَصِيحِي الأَسْتَرَابَادِي ، ثم عن الشريف أبي السعادات الشُّجَرِي ، وقاطعه وردَّ عليه في « أماليه » .

وقرأ اللغة والأدب على أبي منصور الجَوَالِيقِي ، وعلى أبي علي الحسن بن علي المحوُّلِي ، وغيرهما ، وتلقى الحساب والهندسة عن أبي

بكر بن عبد الباقي الأنصاري ، والفرائض عن أبي بكر المرزوقي ، وسمِعَ الحديث من مشايخ وقته وأكثر ، وسمِعَ من أبي الغنائم النُرسی ، وأبي القاسم ابن الحُصَيْن ، وأبي العزّ بن كادش ، وجماعة ، وقرأ العالي والنازل ، ولم يزل يقرأ حتى علا على أقرانه ، وكان حريصاً على السماع ، مداوماً بالقراءة على المشايخ في علوّ سنّه ، وكان يكتب خطأً مليحاً في نهاية الحُسن ، وجمع كتباً كثيرة جداً ، واقتنى الأصول الحسان من أي وجه اتفق له ، وكان يَضُنُّ بها .

وكان يقرأ الحديث الشريف قراءة سريعة صحيحة مفهومة ، قال الإمام أبو شجاع عُمر بن أبي الحسن البسطاميّ بِيُخَارَى : لَمَّا دَخَلْتُ بَغْدَادَ قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو مُحَمَّدَ ابْنُ الْخَشَابِ كِتَابَ « غَرِيبِ الْحَدِيثِ » لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْقُتَيْبِيِّ ، قَرَأَهُ مَا سَمِعْتُ قَبْلَهَا مِثْلَهَا فِي الصَّحَةِ وَالسَّرْعَةِ ، وَحَضَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفَضْلَاءِ سَمَاعَهَا ، وَكَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِ فَلْتَةً لِسَانٍ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ . وَكَانَ يُدِيمُ الْقِرَاءَةَ مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ .

قال تلميذه الحافظ أبو محمد بن الأخضر : دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ مَرِيضٌ ، وَعَلَى صَدْرِهِ كِتَابٌ يَنْظُرُ فِيهِ ، قُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : ذَكَرَ ابْنُ جَنِّي مَسْأَلَةَ فِي النُّحُو ، وَاجْتَهَدَ أَنْ يَسْتَشْهَدَ عَلَيْهَا بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ فَلَمْ يَحْضُرْهُ ، وَإِنِّي لَأَعْرِفُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ سَبْعِينَ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ ، كُلُّ بَيْتٍ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصْلُحُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ بِهِ عَلَيْهَا .

وَقَرَأَ عَلَيْهِ النَّاسُ مَدَّةً وَانْتَفَعُوا بِهِ ، وَتَخَرَّجَ بِهِ جَمَاعَةٌ فِي عِلْمِ النُّحُو وَغَيْرِهِ ، وَرَوَى كَثِيرًا مِنَ الْحَدِيثِ ، وَسمِعَ مِنْهُ الْحَافِظُ أَبُو سَعْدٍ السَّمْعَانِيُّ ، وَأَبُو أَحْمَدَ بْنَ سَكِينَةَ ، وَأَبُو مُحَمَّدَ بْنَ الْأَخْضَرِ ، وَكَانَ ثَقَّةً فِي الْحَدِيثِ صَدُوقًا نَبِيلًا حُجَّةً ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي دِينِهِ بِذَاكَ .

وكان بخيلاً متبذلاً في ملبسه وعيشه ، قليل المبالاة بحفظ ناموس العلم ، يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ، ويقف في الشوارع على جلق المشعوذين واللاعبين بالقرود والدُّبَاب ، كثير المزاح واللعب ، طيب الأخلاق ، وكان كلامه في جلق الإفادة أجود من قلمه ، وكان ضيق العطن ضجوراً ، ما صنّف تصنيفاً فكمّله ، ولم يتزوج قط ولا تسرى .

وكان يتعمم بالعمامة فتبقى أشهراً على حالها ! حتى تسود أطرافها من عرقه مما يلي رأسه وتتقطع من الوسخ ، وترمي عليها الطيور ذرقها ! وكان إذا رفعها عن رأسه ثم أراد لبسها ، تركها على رأسه كيفما اتفقت ، فتجيء غدتها تارة من تلقاء وجهه ، وتارة عن يمينه ، وتارة عن شماله ، فلا يغيرها ! فإذا قيل له في ذلك يقول : ما استوت العمامة على رأس عاقل قط . وكان رحمه الله ظريفاً مزاحاً ذا نواذر .

وكانت له دار عتيقة ولأخ له ومن شاركهما في ورثة أبيه ، وله منها صفة كبيرة منفردة ، وبها بوارى قصب - أي حُصْر - مفروشة ، وفي صدرها ألواح من الخشب ، مرصوص عليها كتب له ، أقامت عدة سنين ما أزيل عنها الغبار ، وكانت تلك البواري استرت بما عليها من التراب ، يقعد في جانب منها ، والباقي على تلك الحالة ، وقيل : إن الطيور عششت فوق الكتب وفي أثنائها .

وكان لا يقتني من الكتب إلا أردأها صورة ، وأرخصها ثمناً ، وله وظيفة في بعض الأماكن في بغداد . وكان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة ، وقال : إنه مقطوع ليأخذه بثمان بخس ، وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به ، قال : دحل بين الكتب فلا أقدر عليه . وكان إذا كتب كتاباً بخطه يشتري بالمثلين ، وتتافس عليه بواعث المستفيدين .

وقد كان يكتب خطأ حسناً ، ويضبط ضبطاً متقناً ، فكتب كذلك كثيراً من

كتب الأدب والحديث وسائر الفنون ، وحصل من الكتب والأصول وغيرها ما لا يدخل تحت الحصر ، ومن خطوط الفضلاء وأجزاء الحديث : شيئاً كثيراً .

وذكر ابن النجار انه لم يمت أحد من أهل العلم وأصحاب الحديث ، إلا وكان يشتري كتبه كلها ، فحصلت أصول المشايخ عنده ، وكان لا يخلو كُتُبُه من كُتُب العلم .

وذكر عنه انه اشترى يوماً كتباً بخمس مئة دينار ، ولم يكن عنده شيء ! فاستمهلهم ثلاثة أيام ، ثم مضى ونادى على داره ، فبلغت خمس مئة دينار ، فنقد صاحبها ، وباعه بخمس مئة دينار ، ووفى ثمن الكتب ، وبقيت له الدار ، ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه^(١) ففرقت وبيع أكثرها ولم يبق إلا عشرها ، فتركت في رباط المأمونية وقفاً .

صنف شرح اللمع لابن جني ، ولم يتمه ، والمرتبجل في شرح الجمل للزجاجي ، والرد على ابن شاذ في شرح الجمل ، والرد على الخطيب التبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ، وشرح مقدمة الوزير يحيى بن هبيرة الحنبلي في النحو وقطعها قبل الإتمام ، ويقال : إنه وصله عليها بألف دينار . وألف الرد على الحريري في مقاماته . ووقف كتبه على أهل العلم قبل موته . ودُفن بمقبرة الإمام أحمد بباب حرب في بغداد .

ورثي بعد موته بمدة في النوم على هيئة حسنة ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قيل : ودخلت الجنة ؟ قال : نعم إلا أن الله أعرض عني ، قيل : أعرض عنك ؟ قال : نعم وعن كثير من العلماء ممن لا يعمل بعلمه . رحمه الله تعالى .

(١) هكذا وقعت العبارة بطولها في « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب ١ : ٣١٩ ، وفيها اضطراب وخلل لم أهتم إلى تصويبه .

١٤ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْعُرَابِ

أبو الفتح ناصح الدين الحنبلي ، المعروف بابن المَنِّي ، جاء في ترجمته في « ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب الحنبلي ١ : ٣٥٨ - ٣٦٤ ، ما خلاصته : « نصر بن فتيان بن مَطَر النَّهْرَوَانِي ، ثم البغدادي ، أبو الفتح الفقيه الزاهد ، المعروف بابن المَنِّي ^(١) ، ناصح الدين وناصح الإسلام ، وأخذ الأعلام ، وفقه العراق على الإطلاق . ولد سنة ٥٠١ ، وتوفي سنة ٥٨٣ .

تفقه على أبي بكر الدُّيُنُورِي ، ولازمه حتى برع في الفقه ، وتقدم على أصحابه ، وأعاد له الدرس ، وصرف همه طول عمره إلى الفقه ، أصولاً

(١) قال الذهبي في « مشبه النسبة » ص ٥٦٩ ، وابن حجر في « تبصير المنتبه بتحرير المشبه » ٤ : ١٢٥٠ « هو بفتح الميم وتشديد النون وكسرهما : العلامة ناصح الإسلام ، أبو الفتح نصر بن فتيان بن المَنِّي ، شيخ الحنابلة ، في حدود السبعين وخمس مئة .

وابن أخيه محمد بن مقبل بن فتيان بن المَنِّي ، حدث عن شُهدة . وأبو عبد الله محمد بن مَنِّي البغدادي ، حكى عنه أبو عَمَر الزاهد . انتهى . ونقله الحافظ الزُّبَيْدِي في « تاج العروس » ٩ : ٣٥١ في آخر (من) ، وانظر ما يفيد ضبطه وزناً في شعر ورد في « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب ١ : ٤٤١ ، في ترجمة عصريه (أحمد بن إبراهيم الصَّقَال الطيبي البغدادي) .

وفروعاً ، مذهباً وخلاقاً ، واشتغالاً وإشغالاً ، ومناظرة . وتصدّر للتدريس والاشتغال والإفادة ، وطال عُمره ، وبَعْدَ صِبْتهُ ، وقَصَدَه الطلَبَةُ من البلاد ، وشَدَّتْ إليه الرحال في طلب الفقه ، وتخرج به أئمة كثيرون .

قال ابن الحنبلي : أفتى ودَرَسَ نحواً من سبعين سنة ، ما تزوج ولا تسرى ، ولا رَكِبَ بغلة ولا فرساً ، ولا مَلَكَ مملوكاً ، ولا لَبَسَ الثياب الفاخرة إلا لباسَ التقوى . وكان أَكثَرَ طعامِهِ ماءً الباقِلاً - أي ماء الفُول - ، وكان إذا فُتِحَ عليه بشيء فرَّقه بين أصحابه ، وكان لا يتكلَّمُ في الأصول ، ويكره من يتكلَّمُ فيه ، سليمَ الاعتقاد ، صحيحَ الانتقاد في الأدلة الفروعية ، وكنا نزورُ معه في بعض السنين قبرَ الإمام أحمد .

وسمعتُ الشيخَ الإمام جمال الدين بن الجوزي - وقد رآه - يقول له : أنت شيخنا . وأُضِرُّ بعدَ الأربعين سنة ، وثَقُلَ سمعُه . وكانت تعليقُته في الخلاف على ذهنه ، وفقهاء الحنابلة اليوم في سائر البلاد يرجعون إليه وإلى أصحابه .

قلت - القائل الحافظ ابن رجب - : وإلى يومنا هذا الأمر على ذلك ، فإن أهل زماننا إنما يرجعون في الفقه من جهة الشيوخ والكتب إلى الشيخين : موفق الدين بن قدامة المقدسي ، ومجد الدين ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي . فأما الشيخُ ابن قدامة فهو تلميذُ ابنِ المنِّي ، وعنه أخذَ الفقه ، وأما ابنُ تيمية فهو تلميذُ تلميذه أبي بكر محمد بن الحلَّوي .

وقد جَمَعَ بعض فضلاء أصحابه أبو محمد عبد الرحمن بن عيسى البُزْوري الواعظُ له سيرةً طويلة ، وقفتُ على بعضها ، ومما ذكره فيها : قال : كان رحمه الله كثيرَ الذكر والتلاوة للقرآن لا سيما في الليل ، مُكرِّماً للصالحين ، محباً لهم ، ليس فيه تَبَهُ الفقهاء ، ولا عُجْبُ العلماء ، إن مَرِضَ أحدٌ من تلامذته ومعارفه عادة ، أو كانت لهم جنازة شيعها ماشياً غير راكب ،

على كِبَر السن وضعف البنية ، زاهداً في الدنيا ، يَقْنَعُ منها بالبُلْغَةِ ، وإذا جاءه فتوح أو جائزة من بيت المال ، ورُزِعها بين أصحابه ، وإن ناله منها شيء أعاده عليهم في غُضُون الأيام .

قال : ولقد حدثني من أثقُ به من أصحابنا : أنه جاءته صلة من بعض الصدور نحو أربعين ديناراً ، ففرَّقها في يومه بين أهله وأصحابه ، وما أخذ منها شيئاً ، فلما كان آخرُ النهار قال لي : يا فلان ، لو كنا عزلنا من ذاك الذهب قيراطين للحَمَام^(١) . وكان قُوته كل يوم قُرْصين ، وربما لم يَقْتُمهما - أي ربما لم يجد مَرَقَ الفول فيَقْتُمهما فيه ! - .

وسُئِلَ عنه الشيخُ موفق الدين بن قدامة المقدسي ، فقال : شيخنا أبو الفتح كان رجلاً صالحاً ، حَسَنَ النية والتعليم ، وكانت له بَرَكَةٌ في التعليم ، قَلَّ من قرأ عليه إلا انتفع ، وكان يَقْنَعُ بالقليل ، ولم يتزوّج ، وقرأت عليه القرآن . وكان يُحِبُّنا وَيَجْبِرُ قلوبنا ، وَيَظْهَرُ منه الْبِشْرُ إذا سَمِعَ كلامنا في المسائل .

قال جامع سيرته : وابتدأ به المرض بعد نصف شعبان ، ولما ازداد مرضه أقْبَلَ الناسُ إلى عيادته من الأكابر والعلماء ، والتلامذة والأصحاب ، وحدثني صاحبه أبو محمد إسماعيل بن علي الفقيه ، وهو الذي تَوَلَّى تَمْرِيقَهُ ، قال : قال لي الشيخ يومَ الخميس ثاني رمضان : أَيُّ فَمْرٍ ، آخِرُ نَعْيِكَ معي يومَ الأحد ، قال : وهكذا كان ، فإنه توفي يوم السبت رابع شهر

(١) قلت : وفي هذا الذي صنعه هذا الإمامُ الزاهد - إلى جانب ابتغاء الثواب والأجر - تفرِيقٌ للقلب من شواغل المال وما يستتبعه ، فيبقى قلبه مطمئناً متفرغاً لما هو متوجه إليه من العلم والتعليم ، وفي هذا راحة وسرورٌ عظيمٌ له ، رحمةُ الله تعالى عليه .

رمضان ، ودفناه يوم الأحد - يعني خامس رمضان - سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة .

قال : ونودي في الناس بموته ، فانتال من الخلائق والأمم عدد يقوت الإحصاء ، فازدحم الناس ، وخيف من الفتن ، فنقذ الولاة : الأجناد والأتراك بالسلاح ، وفتح له جامع القصر ، وزدحم الناس ازدحاماً هائلاً ، وحمله أصحابه وعلماؤه ، وقدم الشيخ الصالح سعد بن عثمان بن مرزوق المصري إماماً في الصلاة عليه ، بعدما اجتهد المماليك والأتراك والأجناد في إيصاله إلى عند نعشه ، وكان الناس قد ازدحموا على الشيخ سعد أيضاً يبركون به ، حتى خيف عليه الهلاك .

وحدثني أبو عبد الله محمد بن طنطاش البزار ، قال : لما وصل الشيخ سعد إلى جنازة الشيخ أمسك عن التكبير ، وأطال الوقوف حتى سكن الناس وسكتوا ، وهذأت الأصوات ، بحيث لم يسمع سوى التكبير ، فأعجب الناس ما فعل ، فلما صلى عليه عاد الزحام والخصام والاحتشاد في أبواب الجامع ، على وجه ما شوهد مثله إلا ما شاء الله ، رحمه الله تعالى .

١٥ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القِفْطِي ثم الحلبي ، المولود سنة ٥٦٨ هـ ، والمتوفى بحلب سنة ٦٤٦ هـ رحمه الله تعالى .

قال صاحبه وَخَدِيْنُهُ العلامة ياقوت الحموي - وقد ترجم له ترجمة مطوّلة في كتابه « معجم الأدباء » ١٥ : ١٧٥ - ٢٠٤ ، أجتزئ منها بما يلي :

« أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القِفْطِي ، يُعرَف بالقاضي الأكرم ، . أخذ الكتاب المشهورين المبرزين في النظم والنثر . ولد بمدينة قِفْط من الصعيد الأعلى بمصر ، ونشأ بالقاهرة ، واجتمعت بخدمته في حلب ، فوجدته جَمَّ الفضل ، كثيرَ النبل ، عظيمَ القدر ، سَمَحَ الكف ، طَلَقَ الوجه ، حُلُوَ البشاشة .

وكنْتُ أَلِزِمُ منزله وَيَحْضُرُ أهل الفضل وأرباب العلم ، فما رأيتُ أحداً فاتحه في فنّ من فنون العلم ، كالتحقيق واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلا قام به أحسن قيام ، وانتظم في عقديهم أحسن انتظام . . .

وكان القاضي الأكرم المذكورُ جَماعَةً للكتب ، حريصاً عليها جداً ، لم

أر - مع اشتغالي على الكتب ويبيعي لها وتجارتي فيها - أشدَّ اهتماماً منه بها ، ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها ، وحَصَلَ له منها ما لم يَحْصُل لأحد ، وكان مقيماً بحلب ، وذلك أنه نشأ بمصر ، وأخذَ بها من كل علم بنصيب .

وله من التصانيف : ١ - كتاب الضاد والظاء ، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلَف في الخط . ٢ - كتاب الدر الثمين في أخبار المُتَمِّين . ٣ - كتاب من ألَوْتُ الأيام إليه فرفَعْتُهُ ، ثم التَوْتُ عليه فوضَعْتُهُ . ٤ - كتاب أخبار المصنِّفين وما صنَّفوه . ٥ - كتاب أخبار النحويين . ٦ - كتاب تاريخ مصر من ابتدائها إلى مُلْك صلاح الدين إياها . ٧ - كتاب تاريخ المغرب ومن تولَّأها من بني تُوَمَرْت . ٨ - كتاب تاريخ اليمن منذ اختطَّت إلى الآن .

٩ - كتاب المجلَّى في استيعاب وجوه كلاً . ١٠ - كتاب الإصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح للجوهري . ١١ - كتاب الكلام على الموطأ ، لم يتم . ١٢ - كتاب الكلام على الصحيح للبخاري ، لم يتم . ١٣ - تاريخ محمود بن سُبُكْتِكِيْن وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم . ١٤ - كتاب أخبار السُلْجُوقِيَّة منذ ابتداء أمرهم إلى نهايته .

١٥ - كتاب الإيناس في أخبار آل مرداس . ١٦ - كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم . ١٧ - كتاب مشيخة زيد بن الحَسَن الكِنْدِي . ١٨ - كتاب نُهْزَةِ الخاطر ، ونُزْهَةِ الناظر ، في أحسن ما نُقِل من على ظهور الكتب والدفاتر . انتهى ما ذكره ياقوت الحموي من مؤلفاته .

وذكر غيره من تصانيف القِفْطِي: ١٩ - إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ٢٠ - أخبار المُحمَّدِين من الشعراء . ٢١ - أشعار اليزيديين . ٢٢ - إنباه الرواة على أنباه النحاة . ٢٣ - تاريخ بني بُؤْيَه . ٢٤ - الذيل على أنساب البلاذُري . ٢٥ - المفيد في أخبار أبي سعيد ، السيرافي . ٢٦ - كتاب التحرير في أخبار محمد بن جرير ، الطبري .

وقال المؤرخ ابن شاکر الکتبی فی « فوات الوفيات » ٢ : ١٢١ ، فی ترجمته : « وجمّع من الكتب مالا یوصف ، وقصّد بها من الآفاق ، وكان لا یحبّ من الدنيا سواها ، ولم تكن له دار ولا زوجة ، وأوصی بكتبه للناصر صاحب حلب ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار » . انتهى .

١٦ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْقُرَآئِبِ

الإمام الذي شهد بفضله وعلمه وصلاحه أهلُ المشرق والمغرب :
الإمام النووي ، وَاُنْقُلُ جُمْلًا من ترجمته في كتاب « تذكرة الحفاظ » للحافظ
الذهبي ٤ : ١٤٧٠ - ١٤٧٤ ، ثم أُتْبِعَهَا بِجُمْلٍ من « طبقات الشافعية » للتاج
السبكي .

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى فيه : « الإمام الحافظ الأوحد ،
القُدوة ، شيخُ الإسلام ، عَلَّمُ الأولياء ، محي الدين ، أبوزكريا ، يحيى بن
شَرَفِ النَّوَاوِيِّ^(١) ، الحِزَامِي ، الحَوْرَانِي ، الشافعي ، صاحبُ التصانيف
المفيدة .

ولد سنة ٦٣١ ، وَقَدِمَ دمشق سنة ٦٤٩ ، فسكن المدرسة الرَّوَّاجِيَّةَ ،
يتناول خُبَرَ المدرسة - يَتَقَوَّى به لا غير - ، فَحَفِظَ « التنبيه » في أربعة أشهرٍ
ونصف ، وقرأ رُبْعَ « المَهْذَبِ » حفظاً في باقي السنة على شيخه الكمال
إسحاق بن أحمد المغربي ، ثم حَجَّ مع أبيه ، وأقام بالمدينة النبوية شهراً
ونصفاً ، ومَرَضَ أَكْثَرَ الطريق .

(١) يقال فيه : النووي والنواوي ، وكان يكتب بخطه (النووي) ، كما تراه في
صورة خُطِّهِ في « الأعلام » للزركلي . وتقدم تعليقا في ص ٣٠ بيان المراد من قولهم في ترجمة
بعض العلماء الكبار : شيخ الإسلام ، فعد إليه .

ذكر شيخنا أبو الحسن بن العطار - تلميذه - أن الشيخ محي الدين ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً ، درس في « الوسيط » - فقه - ، ودرساً في « المهدب » - فقه - ، ودرساً في « الجمع بين الصحيحين » - حديث - ، ودرساً في « صحيح مسلم » - حديث - ، ودرساً في « اللمع » لابن جني - نحو - ، ودرساً في « إصلاح المنطق » - لغة - ، ودرساً في التصريف - علم الصرف - ، ودرساً في أصول الفقه ، ودرساً في أسماء الرجال - من علوم الحديث - ، ودرساً في أصول الدين - عقيدة - (١) .

قال الشيخ محي الدين : وكنت أعلّق جميع ما يتعلّق بها من شرح مُشكّل ، ووضوح عبارة ، وضبط لغة ، وبارك الله تعالى في وقتي ، وخطر لي أن أشتغل في الطب ، واشتريت كتاب « القانون » لابن سينا ، فأظلم قلبي ! وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال - أي التدريس والمطالعة - ! فأفقت على نفسي وبعثت « القانون » فأنار قلبي .

سَمِعَ من الرضوي بن الدهان ، وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصاري ، وزين الدين بن عبد الدائم ، وعماد الدين عبد الكريم بن الحرستاني ، وزين الدين خالد بن يوسف ، ونقي الدين بن أبي اليسر ، وجمال الدين بن الصيرفي ، وشمس الدين بن أبي عمر ، وطبقتهم .

وسَمِعَ « الكتب الستة » ، و« المسند » ، و« الموطأ » ، و« شرح السنة » للبخاري ، و« سنن الدارقطني » ، وأشياء كثيرة . وقرأ « الكمال في أسماء الرجال » للحافظ عبد الغني المقدسي على الزين خالد بن يوسف ، وشرح في أحاديث « الصحيحين » على المحدث أبي إسحاق إبراهيم بن

(١) قال عبد الفتاح : المذكور هنا أحد عشر درساً .

عيسى المرادي ، وأخذ الأصول على القاضي التفليسي ، وتفقه على الكمال إسحاق المغربي ، وشمس الدين عبد الرحمن بن نوح ، وعز الدين عمر بن سعد الإربلي ، والكمال سلار الإربلي ، وقرأ النحو على الشيخ أحمد المصري وغيره ، وقرأ على ابن مالك - الإمام النحوي - كتاباً من تصنيفه .

ولازم الاشتغال - أي التدريس - والتصنيف ، ونشر العلم ، والعبادة والأوراد ، والصيام والذكر ، والصبر على العيش الخشن في المأكل والملبس : مُلازمة كلية لا مَزِيدَ عليها ، مَلَبَسُهُ ثوبٌ خام ، وِعِمَامَتُهُ شِبْخَتَانِيَّةٌ صغيرة .

تخرَّجَ به جماعة من العلماء ، منهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعفري ، وشهاب الدين أحمد بن جَعَوَان ، وشهاب الدين الإربدي ، وعلاء الدين بن العطار ، وحدث عنه ابنُ أبي الفتح ، والحافظ المِزِّي ، وابنُ العطار .

قال ابن العطار : ذَكَرَ لي شيخنا - النووي - رحمه الله تعالى : أنه كان لا يُضَيِّعُ له وقتاً لا في ليل ولا في نهار إلا في الاشتغال ، حتى في الطُّرُق ، وأنه دام على هذا سِتُّ سنين ، ثم أُخِذَ في التصنيف والإفادة ، والنصيحة وقول الحق .

قلتُ - القائل الذهبي - : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه ، والعمل بدقائق الورع ، والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ، ومَحَقِّقِهَا من أغراضها : كان حافظاً للحديث وفنونه ، ورجاله ، وصحيحه وعَلِيلِهِ ، رأساً في معرفة المذهب - أي مذهب الإمام الشافعي - .

قال الرشيدُ بن المعلم : عَدَلْتُ الشيخَ محي الدين في عدم دخوله الحُمَامَ ، وتضييقِ العيش في مأكلِهِ وملبِسِهِ وأحوالِهِ ، وخَوْفَتِهِ من مرضٍ .

يُعْطَلُهُ عَنِ الْإِسْتِغَالِ ، فَقَالَ : إِنَّ فَلَانًا صَامَ وَعَبَدَ اللَّهَ حَتَّى اخْضَرَ جِلْدُهُ .

وَكَانَ يَمْتَنَعُ مِنْ أَكْلِ الْفَوَاكِهِ وَالْخِيَارِ ، وَيَقُولُ : أَخَافُ أَنْ يُرْطَبَ جِسْمِي وَيَجْلِبَ - لِي - النَّوْمُ ! وَكَانَ يَأْكُلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَكْلَةً ، وَيَشْرَبُ شَرْبَةً وَاحِدَةً عِنْدَ السَّحَرِ .

قَالَ ابْنُ الْعَطَّارِ : كَلَّمْتُهُ فِي امْتِنَاعِهِ عَنْ أَكْلِ فَاكِهَةِ دِمَشْقَ ، فَقَالَ : دِمَشْقُ كَثِيرَةُ الْأَوْقَافِ وَالْأَمْلَاقِ مِنَ تَحْتِ الْحَجَرِ ، وَالتَّصَرُّفُ لَهُمْ لَا يَجُوزُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْغِبْطَةِ لَهُمْ ، ثُمَّ الْمَعَامَلَةُ فِيهَا عَلَى وَجْهِ الْمَسَاقَاةِ ، وَفِيهَا خِلَافٌ ، فَكَيْفَ تَطْيِبُ نَفْسِي بِأَكْلِ ذَلِكَ ؟ !

وَكَانَ لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا إِلَّا فِي النَّادِرِ ، مِمَّنْ لَا يَشْتَغِلُ - أَيُّ لَا يَذْرُسُ - عَلَيْهِ ، أَهْدَى لَهُ فَقِيرٌ إِبْرِيْقًا فَقَبِلَهُ ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ بَرَهَانَ الدِّينِ الْإِسْكَندَرَانِي أَنْ يُفْطِرَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : أَحْضِرِ الطَّعَامَ إِلَى هُنَا ، وَنُفْطِرْ جَمْلَةً - أَيُّ مَعًا - ، فَأَكَلَ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ لَوْنَيْنِ ، وَرَبِمَا جَمَعَ الشَّيْخُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بَيْنَ إِدَامَتَيْنِ .

وَكَانَ يُوَاجِهَ الْمُلُوكَ وَالظُّلَمَةَ بِالْإِنْكَارِ ، وَيَكْتُبُ إِلَيْهِمْ ، وَيُخَوِّفُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ، كَتَبَ مَرَّةً : (مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى النَّوَوِي : سَلَامٌ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ ، عَلَى الْمَوْلَى الْمُحْسِنِ مَلِكِ الْأَمْرَاءِ بَدْرِ الدِّينِ ، أَدَامَ اللَّهُ لَهُ الْخَيْرَاتِ ، وَتَوَلَّاهُ بِالْحَسَنَاتِ) ، وَبَلَّغَهُ مِنْ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّ أَمَالِهِ ، وَبَارَكَ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، آمِينَ .

وَيُنْهَى إِلَى الْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ - أَيُّ أَرْفَعُ إِلَى عِلْمِكُمْ الشَّرِيفِ - أَنْ أَهْلَ الشَّامِ فِي ضَيْيقٍ وَضَعْفٍ حَالٍ ، بِسَبَبِ قَلَّةِ الْأَمْطَارِ ، وَذَكَرَ فَصْلًا طَوِيلًا . وَفِي طَيِّ ذَلِكَ وَرَقَةٍ - مِنْهُ - إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، فَرَدَّ - الظَّاهِرُ - جَوَابَهَا رَدًّا عَنِيفًا مَوْلَمًا ! فَتَنَكَّذَتْ خَوَاطِرُ الْجَمَاعَةِ .

وله غيرُ رسالةٍ إلى الملك الظاهر في الأمر بالمعروف ، وواقفَ الملك الظاهر بدار العدل غيرَ مرة ، فحكى عن الملك الظاهر أنه قال : أنا أفزعُ منه !

قال شيخنا ابنُ فَرَح : قد صار الشيخ محي الدين إلى ثلاثِ مراتب ، كلُّ مرتبةٍ لو كانت لشخصٍ لشدَّت إليه الرحال : العلمُ ، والزهدُ ، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد جَمَعَ ابنُ العطار سيرته في ست كراريس ، فمن تصانيفه : « شرح صحيح مسلم » ، « رياض الصالحين » ، « الأذكار » ، « الأربعين » ، « الإرشاد » في علوم الحديث ، « التقرير » مختصره ، وكتاب « المبهمات » ، « تحرير الألفاظ » للتنبيه ، « العمدة » في تصحيح التنبيه ، « الإيضاح » في المناسك ، وله ثلاث مناسك سيواه ، « التبيان في آداب حملة القرآن » ، « فتاواه » مجموعة في مُجَلِّيد ، « الروضة » أربعة أسفار .

وشرح « المهذب » إلى باب المصرة في أربع مجلدات ، وشرح قطعةً من « البخاري » ، وقطعةً من « الوسيط » ، وعملَ قطعةً من الأحكام ، وجملةً كثيرةً من « الأسماء واللغات » ، ومسودةً في طبقات الفقهاء ، ومن التحقيق في الفقه إلى باب صلاة المسافر ، وصنَّف التصانيف الجمّة .

وسافر فزار بيت المقدس ، وعاد إلى نوى ، فمرض عند والده فحضرتُه المنية ، فانتقل إلى رحمة الله تعالى في رجب سنة ٦٧٦ - عن ٤٥ سنة - ، وقبره في نوى ظاهر يُزارُ رحمه الله تعالى . وقد ترك من التأليف المجودة المحققة الكبيرة الكثيرة ، والمصنّفات المستوعبة النادرة المفيدة ، ما لو ألّفه في ضِعفِ هذا العمر لكان كثيراً مدهشاً ، فرحمةُ الله عليه ورضوانه العظيم .

وقال تاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٨ : ٣٩٥ -

٣٩٦ ، في ترجمته : « الشيخ الإمام العلامة يحيى بن شرف ، محي الدين ، أبو زكريا ، شيخ الإسلام ، أستاذ المتأخرين ، وحجة الله على اللاحقين ، والداعي إلى سبيل السالفين .

كان يحيى رحمه الله سيّداً وحُصُوراً - يُشير إلى أنه عاش عزّبا لم يتزوج - ، وليثاً على النفس هُصُوراً ، وزاهداً لم يُبالِ بخراب الدنيا إذا صيّر دينه رُبْعاً معموراً ، له الزهد والقناعة ، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة ، والمُصابرة على أنواع الخير ، لا يَصْرِفُ ساعة في غير طاعة ، هذا مع التفنن في أصناف العلوم ، فقهاً ومتونَ أحاديث ، وأسماء رجال ، ولغةً ، وتصوفاً ، وغير ذلك .

وأنا إذا أردتُ أن أُجِيلَ تفاصيل فضله ، وأدُلَّ الخَلْقَ على مبلغ مقداره بمختصر القولِ وفصله ، لم أزدُ على بيتين ، أنشدَنيهما من لفظه الشيخُ الإمامُ - يعني والده الإمامَ تقي الدين السبكي - .

وكان من حديثهما أنه أعني الوالد رحمه الله ، لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية - بدمشق - ، في سنة ٧٤٢ ، كان يَخْرُجُ في الليل إلى إيوانها ، ليتَهجَّدَ اتجاه الأثر الشريف ، ويُمرِّغَ وجهه على البساط ، وهذا البساط من زمان الأشراف الواقف ، وعليه اسمه ، وكان النووي يجلسُ عليه وقت الدُّرس ، فأنشدني الوالد لنفسه :

وفي دار الحديثِ لَطِيفٌ معنًى على بُسْطٍ لها أَضْبُو وآوي
عَسَى أني أَمْسُ بِحُرٍّ وجهي مكاناً مَسَّهُ قَدَمُ النَّوَاوي .

ثم ساق التاج السبكي في ترجمته ما لا يخرج عما ذكره الذهبي ، فاكتفيت بكلام الذهبي عنه .

وقد أفرَدتُ ترجمة الإمام النووي رحمه الله تعالى بكتب مستقلة

لطيفة ، منها كتاب علاء الدين بن العطار الذي أشار إليه الذهبي ، ومنها كتاب الحافظ السخاوي : « المنهل العذب الروي في ترجمة الإمام النووي » ، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٥٤ ، وفيه رسائل الإمام النووي إلى الملك الظاهر ثم رُدُّوه على رسائل الملك الظاهر ، وذكرُ مواقفه منه . وكتاب الحافظ السيوطي : « المنهج السوي في ترجمة النووي » ، وكتاب السُّخيمي : أحمد بن محمد المصري الشافعي المتوفى سنة ١١٧٨ ، كما ذكره الزركلي في « الأعلام » في ترجمة النووي رحمه الله تعالى . وكتاب « الإمام النووي » للأستاذ الشيخ عبد الغني الدُّقَر ، من علماء دمشق وهو مطبوع بدمشق .

١٧ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْغُرَبَاءِ

الإمام شيخ الإسلام^(١) ابن تيمية الحرّاني ثم الدمشقي . المولود سنة ٦٦١ ، والمتوفى سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى ، عن ٦٧ سنة من العمر ، وعن تصانيف تبلغ نحو خمس مئة مجلد .

وترجمته واسعة جداً ، أجتزىء منها بما يلي عن الحافظ الذهبي وغيره ممن عاصروه وخالفه وخبره وعرفه ، وقد كتب عنه الحافظ الذهبي في كثير من كتبه ، ومدحه وتقده ، وأثنى عليه ثناءً بالغاً في إمامته وعلمه ودينه وصلاحه وتقواه وزهده ، فترجمته له أوفى التراجم وأشملها .

قال رحمه الله تعالى في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » ٤ : ١٤٩٦ ، هو « الشيخ الإمام العلامة ، الحافظ الناقد ، الفقيه المجتهد ، المفسر البارع ، شيخ الإسلام ، علّم الزهاد ، نادرة العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن المفتي شهاب الدين عبيد الحليم ، ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجيد الدين عبيد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ، الحرّاني ، أحد الأعلام .

ولد - بحرّان - في ربيع الأول سنة ٦٦١ ، وقَدِمَ - إلى دمشق - مع أهله

(١) تقدم تعليقي في ص ٣٠ بيان المراد من قولهم في ترجمة بعض الرجال الكبار : (شيخ الاسلام) ، فعد إليه .

سنة ٦٦٧ ، فَسَمِعَ - الحديث - من ابن عبد الدائم ، وابن أبي اليُسْر ، والكمال بن عُبْد ، وابن الصيرفي ، وابن أبي الخير ، وخلق كثير . وعُني بالحديث ، ونَسَخَ الأجزاء ، ودار على الشيوخ ، وخرَّج وانتَقَى ، وبرَّع في الرجال وَعَلَّل الحديث وفقهه ، وفي علوم الإسلام ، وعلم الكلام ، وغير ذلك . —

وكان من بحور العلم ، ومن الأذكياء المعدودين ، والزهاد الأفراد ، والشجعان الكبار ، والكرماء الأجواد ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، وسارت بتصانيفه الركبان .

حدَّث بدمشق ومصر والشعر - أي الإسكندرية - ، وقد امْتَحَنَ وأُوذِيَ مرَّات ، وحُبِسَ بقلعة مصر والقاهرة والإسكندرية ، وبقلعة دمشق مرتين ، وبها توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ في قاعة ، معتقلاً ، ثم جُهِزَ وأُخرج إلى جامع البلد ، فشاهده أمم لا يحصون ، فحزَّروا بستين ألفاً ، ودُفِنَ إلى جنب أخيه الإمام شرف الدين عبد الله ، بمقابر الصوفية رحمهما الله تعالى ^(١) .

وقد انفرد بفتاوى نيل من عِرضه لأجلها ، وهي مغمورة في بحر علمه ، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه ، فما رأيت مثله ، وكلُّ أحدٍ من الأُمَّة فيؤخذُ من قوله ويترك ، فكان ماذا ؟ ^(٢) . انتهى .

(١) قال عبد الفتاح : وما يزال قبره معروف المكان إلى الآن ، وهو في ساحة كلية الطب بجامعة دمشق ، ويجواره قبرُ عَصْرِيهِ وصاحبه الإمام حافظ الدنيا أبي الحجاج البزْري ، داخل سياج من حديد يحيط بهما ، زرتهما رحمهما الله تعالى وقرأت الكتابة على قبريهما من أكثر من ثلاثين سنة .

(٢) سَقَطَ هذا المقطع سهواً من نقل الدكتور صلاح الدين المنجد ، حين نقل ترجمة ابن تيمية من « تذكرة الحفاظ » إلى كتابه « شيخ الإسلام ابن تيمية » ص ٧ ، فاقضى التنبية إليه .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً ، في « معجم شيوخه » مترجماً لابن تيمية أيضاً : « شيخنا وشيخ الإسلام ، وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويراً إلهياً ، وكرماً ونصحاً للأمة ، وأمرأً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر . سَمِعَ الحديث ، وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب ، وخرَّج ، ونَظَرَ في الرجال والطبقات ، وحَصَّلَ ما لم يحصِّله غيره .

وبرَّع في تفسير القرآن ، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيَّال ، وخاطرٍ وقَّادٍ إلى مواضع الإشكال ميَّال ، واستنبط منه أشياء لم يُسَبِّقَ إليها . وبرَّع في الحديث وحفظه ، فقلَّ من يحفظ الحديث معزَّوًّا إلى أصوله وصحابه ، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل . وفاق الناس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين ، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل بما يقوم دليله عنده .

وأُتقن العربية أصولاً وفروعاً ، وتعليلاً واختلافاً ، ونظر في العقليات ، وعَرَفَ أقوال المتكلمين ، ورَدَّ عليهم ، ونَبَّهَ على خطئهم ، وحذَّر ، ونَصَّر السُّنَّةَ بأوضح حُجَج وأبهر براهين .

— وأوذى في ذات الله من المخالفين ، وأهينَ في نصر السنة المحضة ، حتى أعلَى الله مناره ، وجَمَعَ قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكَبَّتْ أعداءه ، وهَدَى به رجالاً كثيرةً من أهل المِلَلِ والنُّحُلِ ، وجَبَلَ قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً ، وعلى طاعته ، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد يثلم خصوصاً في كائنة التار .

وهو أكبر من أن يُنَبَّهَ على سيرته مثلي ، فلو حُلِّفْتُ بين الركن والمقام لحَلَفْتُ أنني ما رأيتُ بعيني مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه في العلم . انتهى من « شذرات الذهب » ٦ : ٨١ .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً في « الدرة اليتيمية في السيرة التيمية » :

« وعُني الشيخ تقي الدين بالحديث ، ونَسَخَ جملة ، وتعلَّم الخطَّ والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن ، ثم أقبل على الفقه ، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ، ثم فهِمَهَا وأَخَذَ يتأملُ كتابَ سيويه حتى فهِمَهُ ، وبرَّعَ في النحو ، وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى سَبَقَ فيه ، وأَحْكَمَ أصولَ الفقه ، كل هذا وهو ابنُ بضع عشرة سنة ، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوَّة حافظته وإدراكه ، ونشأ في تصوُّن تام ، وعفاف وتعبُّد ، واقتصاد في الملبس والمأكَل .

وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، فيناظرُ ويُفجِّمُ الكبار ، ويأتي بما يتحIRON ، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة ، وشرَّع في الجمع والتأليف ، وبعَدَ صِيَّتُهُ في العلم ، وطبَّقَ ذَكَرُهُ الآفاق ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز ، أيامَ الجُمُع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلسَ ولا يتلعثم ، وكذلك الدرس ، بتؤدَّة وصوتٍ جَهَوْرِيٍّ فصيح ، يقول في المجلس أزيد من كراسين ، ويكتب على الفتوى في الحال عِدَّة أوصال ، بخطٍ سريعٍ في غاية التعليق والإغلاق .

وكانت له خِبرَةٌ تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم ، وطبقاتهم ، ومعرفةُ بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، والصحيح والسقيم ، مع حفظِهِ لِمُتُونِهِ الذي انفَرَدَ به ، وهو عجيبٌ في استحضراره واستخراج الحُجَج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى (الكتب الستة) و(المسند) ، بحيث يصدق عليه أن يقال : كلُّ حديث لا يعرفه ابنُ تيمية فليس بحديث ، ولكن الإحاطة لله تعالى ، غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي .

وأما التفسيرُ فسُلِّمَ إليه ، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوَّةٌ عجيبة ، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه ، بيَّن خطأ كثيرٍ من أقوال المفسرين ، ويكتب في اليوم واللييلة من التفسير أو الفقه ، أو من الأصول - أصول الفقه وأصول الكلام والتوحيد - ، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل

نحواً من أربعة كراريس أو أزيد . وما يَعدُّ أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمس مئة مجلد ، وله في غير مسألة مصنَّف مفرد .

وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، قلَّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأئمة الأربعة ، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصنَّف فيها واحتجَّ لها بالكتاب والسنة ، وبقي عدَّة سنين لا يُفتي بمذهب معيَّن ، بل بما قام الدليل عليه عنده .

ولقد نصر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرين ، وهابوا وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيء عليه ، وبدعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحقُّ المرُّ الذي أدَّى إليه اجتهاده وجِدَّة ذهنه وسعة دائرته في السُنن والأقوال ، وجَرى بينه وبينهم حَمَلاتُ حَرْبية ، ووقعات شامية ومصرية .

وكان معظماً لحُرَمات الله ، دائم الابتغال ، كثير الاستعانة بالله ، قويُّ التوكل ، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يُدِيئُها ، وله من الطَّرَفِ الآخر محبوبون من العلماء والصلحاء والجُند والأمراء ، والتجار والكبراء وسائر العامة تُجِبُّه . بشجاعته تضرب الأمثال ، وبيعضها يتشبه أكابر الأبطال ، ولما سافر على البريد إلى القاهرة سنة ٧٠٠ ، وحَضَّ على الجهاد ، رُتِبَ له مرتب في كل يوم ، وهو دينار وتحفة ، وجاءته بُقْجَةٌ قَماش - أي صُرَّة - ، فلم يقبل من ذلك شيئاً .

وقال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد : لما اجتمعتُ بابن تيمية ، رأيت رجلاً كلَّ العلوم بين عينيهِ ، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، فقليل له : فلم لم تتناظرا ؟ قال : لأنه يحبُّ الكلام ، وأُجِبُّ السكوت . وحَضَّر عنده شيخُ

النحاة أبو حيان الأندلسي ، وقال فيه : ما رأيت عيناى مثله .

ولما جاء السلطان إلى شَقَحَب - موضع قرب دمشق - والخليفة ، لاقاهما إلى قَرْنِ الحرّة ، وجَعَلَ يُثَبِّتُهُما ، فلما رأى السلطان كثرة التار ، قال : يا خالْدَ بْنَ الوليد ، فقال ابن تيمية : قل : يا مالِكُ يومَ الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين . وقال للسلطان : أثبُتْ فانت منصور ، فقال له بعضُ الأمراء قل : إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، فكان كما قال .

وكان فيه قلةٌ مداراةٍ وعدمُ تَوَدّةٍ غالباً ، ولم يكن من رجال الدُول ، ولا يَسْلُكُ معهم تلك النواميس ، وأعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار ! لا يحتملها عقولُ أبناءِ زماننا ولا علومُهم ، كمسألة التّكفير في الحلف بالطلاق ، ومسألة أن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا واحدة ، وأن الطلاق في الحيض لا يقع .

وساس نفسه سياسةً عجيبيةً ، فحبس مرات بمصر ودمشق والإسكندرية ، وارتفع وانخفض ، واستبد برأيه ، وعسى أن يكون ذلك كفارة له ، وكم وقع في صعبٍ بقوة نفسه وخلّصه الله . وله نظم وسط . ولم يتزوَّج ولا تسرّى ، ولا كان له من المعلوم إلا شيء قليل ، وكان أخوه يقوم بمصالحه ، وكان لا يطلب منهم غداً ولا عشاءً غالباً ، وما كانت الدنيا منه على بال .

وكان يقول في كثير من أحوال المشايخ : إنها شيطانية أو نفسانية ، فيُنظَرُ في متابعة الشيخ للكتاب والسنة ، فإن كانت كذلك فحالُه صحيح وكشفه رحمانى غالباً وما هو بالمعصوم ، وله في ذلك عدّة تصانيف تبلغ مجلّدات من أعجب العجب .

وكم عوفي من الصُّراعِ الجِنِّيِّ إنساناً بمجرد تهديده للجني ، وجرت له

في ذلك فصول ، ولم يفعل أكثر من أن يتلو آيات ويقول : إن لم تنقطع عن هذا المصروع ، وإلا عَمِلْنَا معك حكم الشرع ، وإلا عَمِلْنَا ما يُرْضِي الله ورسوله .

وفي آخر الأمر ظفروا له بمسألة السفر لزيارة قبور النبيين ، وأن السفر وَشَدُّ الرِّحَالِ لذلك منهِيٌّ عنه ، لقوله ﷺ : لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ، ومع اعترافه بأن الزيارة بلا شَدِّ رَحْلِ قُرْبَةٍ ، فشنَّعوا عليه بها .

وكتب فيها جماعة بأنه يَلْزَمُ من مَنَعِهِ شَائِبَةٌ تنقيص للنبوة ، فيُكَفِّرُ بذلك . وأتت عِدَّةٌ بأنه مخطئٌ بذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم ، ووافقه جماعة .

وَكَبُرَتْ القضية ، فأعيد إلى قاعة بالقلعة ، فبقي بضعاً وعشرين شهراً ، وآل الأمر إلى أن مُنِعَ من الكتابة والمطالعة ، وما تركوا عنده كُرَّاساً ولا دَوَاةً ، وبقي أشهراً على ذلك ، فأقبل على التلاوة والتهجد والعبادة حتى أتاه اليقين .

فلم يفجأ الناس إلا نعيه ! وما علموا بمرضه ، فازدحم الخلق عند باب القلعة وبالجامع زحمة صلاة الجمعة وأرجح ، وشيَّعه الخلق من أربعة أبواب البلد ، وحُبل على الرؤوس ، وعاش ٦٧ سنة وأشهرأ ، وكان أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمة أذنيه ، ربعة من الرجال ، جَهْوَرِيٌّ الصوت ، أبيض ، أعين ، كان عينيه لسانان ناطقان ، بعيداً ما بين المنكبين ، فصيح اللسان ، سريع القراءة ، تعتريه جدَّة ثم يَقهرها بجَلْم وصفح . انتهى من تاريخ ابن الوردي : « تمة المختصر في أخبار البشر » ٤٠٦ : ٢ - ٤١٣ .

وقال الحافظ الذهبي أيضاً : ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشدَّ استحضاراً لمتون الأحاديث وعزوها إلى « الصحيح » أو « المسند » أو « السنن » ، كأن ذلك نُصِبَ عينيه ، وعلى

طرف لسانه ، بعبارة رشيقة حلوة، وعين مفتوحة ، وإفحام للمخالف ، وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه ، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

— وأما معرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة ، فكان لا يُشَقُّ فيها غُبَارُهُ ، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط ، والشجاعة المفرطة ، والفراغ عن ملاذ النفس ، من اللباس الجميل والمأكَل والطيب والراحة الدنيوية .

لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تَرَوَى من المطالعة ، ولا تَمَلُّ من الاشتغال ، ولا تَكِلُّ من البحث ، وقلُّ أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه ، إلا ويُفَتِّحْ له من ذلك الباب أبواب ، ويستدرِك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله . انتهى . نَقَلَهُ تلميذه المؤرخ الأديب الصلاح الصفدي في كتابه « الوافي بالوفيات » ٧ : ١٦ .

وقال فيه الصلاح الصفدي أيضاً : « ورأيتُ مرات بمدرسة القَصَّاعين وبالحنبلية . وكان إذا تكَلَّمَ أغمَضَ عينيه ، وازدَحَمَتِ العبارة على لسانه ، فرأيتُ العَجَبَ العجيب ، والحَيَرَ الذي ماله مُشَاكِلٌ في فنونه ولا ضَرِيب ، والعالم الذي أخذ من كل شيء بنصيب ، سَهْمُهُ للأغراض مُصِيب ، والمُنَاطَرُ الذي إذا جال في حومة الجدال رَمَى الخصوم من مَبَاجِثِهِ باليوم العصيب .

وعاينتَ بذراً لا يَرى البدر مثله وخاطبتَ بحراً لا يَرى العَبْرَ عائمُهُ^(١) واجتمعتُ به مرات ، وكنت أحضِرُ دروسَه في الحنبلية ، ويقع لي أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره ، ولا وقفتُ عليها في كتاب .

(١) العَبْرُ بكسر العين ويفتح : الشاطئ ، كما في « القاموس » .

وعلى الجملة : فما رأيتُ - ولا أرى - مثله في اطلاعه وحافظته ، ولقد صدَّق ما سمعنا به عن الحُفَّاظِ الأوَّل ، وكانت هِمَّتُه عليَّة إلى الغاية ، وكان كثيراً ما يُنشد قول ابن صُرَّ دُرَّ :

تموتُ النفوسُ بأوصابها ولم يَذرْ عُوَاذها ما بها
وما أنصفتُ مُهْجَةً تشتكي أذاها إلى غير أحبابها
ويُنشدُ أيضاً :

من لم يُقَدِّ ويُدَسَّ في خيشومه رَهْجُ الخميسِ فلن يَقُوذَ خميسا
وكان ذا قلم يسابق البرق إذا لَمَعَ ، والودق إذا قَبِعَ ^(١) ، يملئ على المسألة الواحدة ما شاء من رأس القلم ، ويكتب الكراسين والثلاثة في قعدة واحدة ، وحَدُّ ذهنه ما كل ولا انثَلَم .

وقد تحلَّى « بالمُحلَّى » ، وتولَّى من تقليده ما تولَّى ، فلو شاء أورده عن ظهر قلب ، وأتى بجملة ما فيه من الشَّنَاعِ والثَّلَبِ . وصَبَّحَ الزمان في رده على النصارى والرافضة ، ومن عانَدَ الدين أو ناقَضَه ، ولو تصدَّى لشرح البخاري أو لتفسير القرآن العظيم ، لقلَّدَ أعناق أهل العلوم بَدْرُ كلامه النظيم ^(٢) .

وكان من صغره حريصاً على الطلب ، مجداً على التحصيل والدأب ، لا يُؤثر على الاشتغال - أي تحصيل العلم - لذة ، ولا يُؤثر أن تضع منه لحظة في البطالة فُتَّة ، يذهل عن - الطعام - ويغيب في لذة العلم عن جسِّه ، لا يطلب أكلاً إلا إذا حضر لديه ، ولا يرتاح إلى طعامٍ أو شرابٍ في أبردِّه . - أي في الغداة والعشي - انتهى من « الوافي بالوفيت » ٧ : ١٩ - ٢٢ ، ومن

(١) الودق : المطر . وقوله : (إذا قَبِعَ) . كذا في المطبوع . وهو بعيد عن الصحة لغةً ، أو لعله ضَمَّنَ (قَبِعَ) معنى هَظَلَ واستمرَّ ؟ فتأمل ، والله تعالى أعلم .

(٢) قلت : وقد ندِّم الشيخ ابن تيمية على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن . كما سيأتي في كلامه المنقول في ص ١٠٩ .

« أعيان العصر » للصلاح الصفدي ، عن كتاب الدكتور المنجد : « شيخ الإسلام ابن تيمية » ص ٥٠ - ٥١ .

— وقال الحافظ شمس الدين بن عبد الهادي ، في ترجمته له في كتابه « تذكرة الحفاظ » : « وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال العلامة كمال الدين بن الزمّلكاني : كان إذا سُئل عن فن من الفنون ، ظنّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوين إليه ، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة ، والترتيب والتقسيم والتبيين » . انتهى من « فوات الوفيات » لابن شاکر الكتبي .

وقال الحافظ ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » ٢ : ٣٩٢ ، في ترجمته : « وقال الإمام العلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي ، في كتاب كتبه إلى الحافظ الذهبي ، في أمر الشيخ ابن تيمية : « . . . فالمملوك يتحقق كبير قدره ، وزخارة بحره ، وتوسّعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، ويُلَوِّغُه في كلِّ من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف .

والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ما جمعه الله له من الزهادة ، والورع ، والديانة ، ونصرة الحق ، والقيام فيه ، لا لغرضٍ سواه ، وجريه على سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالماخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان ، بل من أزمان . » انتهى .

قال جمال الدين السُّرْمَرِي في أماليه : ومن عجائب ما وقع في الحفظ من أهل زماننا ، أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب مطالعةً مرةً ، فينتقشُ في ذهنه ، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه .

قال الذهبي : ومن خالطه وعرفه فقد ينسبني إلى التخصير فيه ، ومن نابذه وخالفه فقد ينسبني إلى التغالي فيه ، وقد أُذيتُ من الفريقين من أصحابه وأضداده .

وأنا لا أعتقد فيه عصمة ، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية ، فانه كان مع سعة علمه ، وفرط شجاعته ، وسيلان ذهنه ، وتعظيمه لِحُرْمَاتِ الدين : بشراً من البشر ، تعتريه جِدَّةٌ في البحث وغضب وشطط للخصم ، تَزْرَعُ له عداوةً في النفوس ، وإلا لو لَاطَفَ خصومَه لكان عليه كلمة إجماع ، فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بتفوقه ، مُقَرَّونَ بِندورة خطئه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكنتز لا نظير له ، ولكن ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك - سوى رسول الله ﷺ - ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثيته وكثرة توجهه. انتهى من «الدرر الكامنة» للحافظ ابن حجر ١ : ١٧٦ .

قال الذهبي : وفي آخر الأمر حُبِسَ بقلعة دمشق ستين وأشهرًا ، وبها مات رحمه الله تعالى . وبقي مدة في القلعة يكتب العلم ويصنفه ، ويرسل إلى أصحابه الرسائل ، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة من العلوم العظيمة والأحوال الجسيمة .

وقال : قد فَتَحَ الله عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة ، من معاني القرآن ومن أصول العلم ، بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن .

ثم إنه مُنِعَ من الكتابة ، ولم يُتْرَكْ عنده دواة ولا قلم ولا ورق ، فأقبل

على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر » . انتهى ما نقله الحافظ ابن رجب .

— وقال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية ، في كتابه « الوابل الصيب من الكلم الطيب » ص ٦٦ و ٥٨ : « سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن في الدنيا جنة - يعني بها : جنة الإيمان بالله وبما جاء به سيدنا رسول الله - من لم يدخلها - أي يتصف بها في الدنيا - لا يدخل جنة الآخرة —

وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جئتني ويُستاني في صدري - يعني بذلك : إيمانه وعلمه - ، أين رُحْتُ فهي معي لا تفارقتني . إن حُبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في مَحْبِسِهِ في القلعة : لو بَذَلْتُ مِلاً هذه القلعة ذهباً ما عَدَلْتُ عندي شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيْتُهُمْ على ما تَسَبَّبُوا لي فيه من الخير .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . ما شاء الله . وقال لي مرة : المحبوس من حُبَسَ قلبه عن رَبِّهِ تعالى ، والمأسور من أَسْرَهُ هواه . ولما دَخَلَ القلعة وصار من داخل سُورِها ، نَظَرَ إليه وقال : ﴿ فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحداً أَطْيَبَ عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك من أَطْيَبِ الناس عيشاً ، وأشرحهم صدرأً ، وأقواهم قلباً ، وأسبرهم نفساً ، تَلَوُّحُ نَضْرَةِ النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضائق بنا الأرض ،

أُتِينَاهُ ، فما هو إلا أن نراه ونَسْمَعَ كَلَامَهُ ، فيذهب عنا ذلك كُلُّهُ ، وينقلب انشراحاً وقوةً و يقيناً وطمأنينة .

فسبحان من أشهد عباده جَنَّتْهُ قَبْلَ لِقَائِهِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطَيْبِهَا مَا اسْتَفْرَغُوا هُمْ لَطْلِبُهَا وَالْمَسَابِقَةُ إِلَيْهَا .

وسمعتُه قَدُّسَ اللَّهِ تَعَالَى رُوحَهُ يَقُولُ : الذِّكْرُ لِلْقَلْبِ مِثْلُ الْمَاءِ لِلسَّمَكِ ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

وحضرته مرةً : صَلَّى الْفَجْرَ ، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ انْتِصَافِ النَّهَارِ ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيَّ وَقَالَ : هَذِهِ غَدَوَتِي وَلَمْ أَتَعَدَّ ، وَلَوْلَمْ أَتَعَدَّ - هَذَا - الْغَدَاءَ سَقَطْتُ قُوَّتِي ، أَوْ كَلَاماً قَرِيباً مِنْ هَذَا . وَقَالَ لِي مَرَّةً : لَا أَتْرُكُ الذِّكْرَ إِلَّا بَنِيَّةَ إِجْمَامِ نَفْسِي وَإِرَاحَتِهَا ، لِأَسْتَعِدَّ بِتِلْكَ الزَّاحَةِ لِذِكْرِ آخِرٍ ، أَوْ كَلَاماً هَذَا مَعْنَاهُ .

ثم قال الشيخ الإمام ابن القيم في ص ١٠٨ « الحادية والستون من فوائد الذكر : أَنَّهُ يُعْطِي الذَّاكِرَ قُوَّةً ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَفْعَلُ مَعَ الذِّكْرِ مَا لَمْ يُظَنَّ فَعْلَهُ بِدُونِهِ .

وقد شاهدتُ مِنْ قُوَّةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ ، فِي سَنَتِهِ ، وَكَلَامِهِ ، وَإِقْدَامِهِ ، وَكُتَابَتِهِ : أَمْرًا عَجِيبًا ، فَكَانَ يَكْتُبُ فِي الْيَوْمِ مِنَ التَّصْنِيفِ مَا يَكْتُبُهُ النَّاسُ فِي جُمُعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَقَدْ شَاهَدْتُ الْعَسْكَرَ مِنْ قُوَّتِهِ فِي الْحَرْبِ أَمْرًا عَظِيمًا . انتهى .

قال عبد الفتاح : وقد اقتصرْتُ فيما نقلتُه فِي تَرْجُمَةِ الشَّيْخِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، عَلَى جُمَلِ مَا حَكَاهُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ وَخَالَطُوهُ ، فِي بَيَانِ عِظَمِ إِمَامَتِهِ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ وَالْمَآثِرِ ، وَلَمْ أَشَأْ نَقْلَ

شيء هنا مما انتقدوه عليه في مسائل الاعتقاد والفقه والتفسير وغيرها ، لأن الغاية من ذكر ترجمته في كتابي هذا : بيان مقامه الرفيع في تبسُّم ذروة العلم والفضائل ، وقد عاش عَزَباً ما تزوَّج ولا تسرَّى ، ولا التفت إلى ملاذ الحياة ومُتَمِّعِها ، انصرفاً منه إلى العلم ، ودَوْبَاناً في خدمة الدين والإسلام .

وقد خُلف من أولاد أفكاره ، وبناتِ بَنَانِهِ : نحو خمس مئة مجلد ، كما تقدم في ص ١٠٣ في كلام الحافظ الذهبي . وقد أُلِّف تلميذه الشيخ ابن القيم رسالة في أسماء مؤلفاته ، بلغت صفحاتها ٢٢ صفحة ، وذكرَ فيها فيها ما يقارب ٣٥٠ مؤلفاً ، بين كتاب كبير في مجلدات ، ورسالة أو قاعدة في مجلد أو صفحات ، وقد طُبعت هذه الرسالة في المجمع العلمي بدمشق ، بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد من سنوات . وقال الحافظ ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » ٢ : ٤٠٣ : « وفي ترجمته : « وأما تصانيفه فقد امتلأت بها الأمصار ، وجاوزت حدَّ الكثرة ، فلا يمكن لأحدٍ حصرُها » . انتهى .

قلت : فهذه آثارُ عُزوبته ، وثمراتُ تَبَتُّلِهِ وانقطاعه للعلم ، ما تزال تُفيد الطالبين ، وتُغذِّي العارفين ، وتُمِدُّ العلماء والمتعلمين ، على مر الدهور والسنين ، فله درُّه ما أكثرَ أبناء فوائده وعلومه في العالم الإسلامي من زمن حياته إلى ما شاء الله من بقاء الدنيا والناس .

— وللدكتور صلاح الدين المنجد كتاب أسماء : « شيخ الإسلام ابن تيمية وسيرته وأخباره عند المؤرخين » ، يزيد على ١٧٠ صفحة ، جَمَعَ فيه ما تُرجم به الشيخ ابن تيمية ، من العلماء المعاصرين له ومن بعدهم في طبقاتهم وتواريخهم ، وقد أحسن بذلك أيما إحسان .

١٨ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْقُرَّابِ

شيخُ مشايخنا بحلب الشيخُ بشير الغَزِّي الحلبي ، العلامة الفقيه المفسر النحوي اللغوي الأديب الأريب الحَفَاطَة ، المولود بحلب سنة ١٢٧٤ ، والمتوفى بها سنة ١٣٣٩ رحمه الله تعالى .

قال تلميذه شيخنا العلامة المحدث محمد راغب الطباخ مؤرخ حلب رحمه الله تعالى ، في تاريخه « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ٧ : ٦٢٣ - ٦٣٥ ، في ترجمته الحافلة ، ما أُلْخِصَ فيما يلي :

« العالم العلامة ، والخبر الفهامة ، قاضي القضاة ، الشيخ محمد بشير ابن العالم الشيخ محمد هلال ابن السيد محمد الألاجاتي الحلبي - وإنما قيل له : الغَزِّي لأنه تربى في جِجَر أخيه لأمه العلامة المؤرخ الأديب الشيخ كامل الغَزِّي ، الحلبي ، صاحب كتاب « نهر الذهب في تاريخ حلب » ، فنُسِبَ إلى آل الغَزِّي - .

ترجمه أخوه لأمه رصيفنا الفاضل الشيخ كامل الغزي ترجمة مسهبة ، وإنني آتي على خلاصة ترجمته له بتصرف يسير ، ثم أتبعها بما أعلمه من أحوال شيخنا وترجمته رحمه الله تعالى .

قال أخوه : ولد أخي سنة ١٢٧٤ ، ولما ترعرع حفظ القرآن العظيم في

السنة السابعة من عمره ، عند وليّ الله الشيخ شريف الشهير بالأعرج ، وبقي عنده سنة واحدة ، وبعد أن خَرَجَ لَازِمَ القراءة والكتابة بسائق نفسه ، وكنتُ وهو في التاسعة من عمره ، أعطيه الكتب المخطوطة السقيمة الخط ، وأكلّفه قراءتها ، فكان يقرأ فيها بكل سرعة وفصاحة ، مع قلة اللحن وغلبة الصواب على الفاظه .

وتعلم وهو في هذه السن أيضاً رسم الخاتم المخمس ، المنسوب للإمام حجة الإسلام الغزالي ، علّمه إياه الشيخ يوسف السّرْمِينِي ، الشهير بالذكاء والفتنة في عصره . وتردّد مدة على رجل مشهور بتصليح الساعات ، كان مقيماً في جامع العَدْلِيَّة ، يُعرَف بالشيخ عبدو ، فتعلّم منه هذه الصنعة في أشهر قليلة ، وصار ماهراً بها .

ولما بَلَغَ الثالثة عشرة من عمره ، جاورَ معي في المدرسة السِّيَافِيَّة ، وأخذَ في حفظ المتون ، ولا أبالغُ إذا قلتُ : إنه حَفِظَ « الألفية » لابن مالك - وهي منظومة في ألف بيت ، تُعدُّ عمدة علم النحو - في أقل من عشرين يوماً ، فكنتُ أعجَبُ من سرعة حفظه وقوة ذاكرته .

ثم أخذَ في حفظ كتب الأدب ، فلم يَمُضِ عليه مدة وجيزة ، حتى أصبح يستوعب جملةً وافرة من أشعار العرب ، وتبدأ كثيرة من مختارات كتب الأدب والأخلاق ، وحَفِظَ حِصَّةً كبيرة من « مَثَن الكثر » في الفقه الحنفي .

وفي سنة ١٢٩٥ انتقل إلى المدرسة الرُّضائية - هي المشهورة المعروفة اليوم باسم المدرسة العثمانية ، بالقرب من باب النصر - ، وجاورَ فيها ، ومن ذلك الحين بدأ يشتهر فضله .

وأولُ شيءٍ اشتهر فيه حُسْنُ الصوتِ والأداء في تلاوة القرآن العظيم ، فكان الناس يقصدون المدرسة الرُّضائية ليلة الجمعة وقبل صلاة الجمعة ، لسماع

تلاوته في جامعها ، ثم طُلب منه أن يؤمَّ الناس في صلاة الصبح في رمضان ، في الجامع الكبير بحلب فأجاب ، فكان الناس يقصدون الائتِمامَ به في هذه الصلاة ، ويَحْضُرُونَ من أقصى المدينة لسماع قراءته ، وقد واظب على هذه الوظيفة أزيد من خمسٍ وعشرين سنة .

أساتذته :

قرأ على العلامة الشيخ شهيد التُّرْمَانِينِي : النحوَ والصرف والمعاني والبيان . ولمَّا جاورَ في المدرسة الرُّضائية ، لازَمَ الحضور على مدرِّسها الشيخ مصطفى الكردي ، قرأ عليه « المواقف » و« شرحه » ، والتفسير والحديث ، و« عقائد النَّسْفِي » . وقرأ على الأستاذ الشيخ محمد الزرقا : معظم كتاب « الدر المختار » في الفقه الحنفي . وقرأ على العالم الفاضل الشيخ محمد الصابوني : علميَّ الفرائض والعروض .

ولمَّا آل التدريسُ في المدرسة الرضائية ، إلى الشيخ المحقق الشيخ حسين الكردي ، لازمه فقرأ عليه : عِلْمَ المنطق وآداب البحث والمناظرة ، وجملةً من التفسير ومصطلح الحديث . وقرأ على الاستاذ إسحاق التركي : عِلْمَ الميقات والفلك . وكان لا يُحجم عن الاشتغال في الفنون الحديثة أيضاً ، ويقول : أحبُّ أن أكون مطلعاً على كل علم ، لأنني أخاف إذا تصدَّرتُ للإفادة ، أن يُطلَبَ مني إقراء علم ، فأقول : هذا لا أعرفه ، ولذا كان يشتغل في كتب الطبيعيات والفلسفة الغربية .

- وكان من شيوخه الذين لازمهم كلُّ الملازمة ، وانتفع بعلومهم وصلاحهم الشيخُ محمد البدوي ، المولود سنة ١٢٤٩ والمتوفى سنة ١٣٣١ ، تلميذُ الإمام الشهير ، والعلامة النحرير ، الشيخ أحمد التُّرْمَانِينِي . وكان الشيخ البدوي خزانة علم ، وعلى غاية من الورع والتقوى والعبادة والانصرافِ للعلم ، وكان

مجاوراً في المدرسة الرضائية أيضاً ، فكان إذا تمشى في ساحة المدرسة للرياضة ، مَشَى معه تلميذه الشيخ بشير ، وسأله عن المشكلات والعويصات ، فيستفيد منه من الفوائد الخاصة الغالية ما لا يصل اليه الطلبة .

وصادَفَ مرةً أن الشيخ البدوي تبرّم منه وزجره ، فانقطعت الاستفادات الخاصة من الشيخ ، واشتدَّ حُزْنُ التلميذ من هذا الجُرمَانِ ، فكتبَ في ورقةٍ :
البيت المشهور في شواهد النحو :

يَبْدُلُ وَجِلْمٍ سَادَ فِي قَوْمِهِ الْفَتَى وَكَوْنُكَ إِيَاهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ
وتلطف فأدخلها إلى شُبَّانِك حُجْرَةَ الشيخ بحيث يراها ، فلما رآها الشيخ صَفَحَ وانشرح له صدره ، وعاد معه إلى ما كان من الإفادات والإجابات عن المغلقات والمعضلات .

ومع اشتغاله في علوم كثيرة ، فقد وجَّه عنايةً لحفظ اللغة والدواوين الشعرية والكتب الأدبية ، مع الفهم التام لمعانيها ، إلى أن صار من المبرزين في ذلك ، بحيث فاق معاصريه ، وأقرَّ له بالسبق جهابذة علماء اللغة والأدب ونُقَّادُها في الأقطار العربية ، وجعلوه مرجعهم وعمدتهم فيما صَعِبَ فهمه وبعُدَ إدراكه .

وكثيراً ما كنا نبحث عن اسم شيءٍ نعرفه ولا نعرف له اسماً في اللغة العربية ، فبعد أن نُتَقِبَ عنه في معاجم اللغة ، ونَتَّبِعُه في المواد التي هي مظنة وجوده ، فلا نظفر بعد طول بحثنا بظائل ، فنسأله عنه فيجيبنا على الفور والبدية ، بحيث يقول : اسمه كذا ، وهو مذكور في المادة الفلانية من المعجم الفلاني أو في شعر فلان ، فنراجعه فنراه صريحاً كما أفاد .

والحق أنه قد كان الآية الكبرى في معرفة اللغة وأشعار العرب وأخبارهم ، وكان إذا تكلم في الأدب يخال سامعه أنه لم يشذَّ عنه نادرةً منه ، وأنه يمكنه أن يُملي من حفظه كتاب « الأغاني » و « شرح الديوان الحماسة » و « أمالي القاضي »

«كامل المبرّد»، ومختارات الشعراء الثلاثة: الطائي والبحري والمتنبي،
وشعر أبي العلاء: «اللزوميات» و«سَقَطَ الزُّنْدُ»، وغير ذلك من محفوظاته التي
يَسْتَعِدُّ العقلُ حفظَها ووَعْيَها في صدره .

نشأته : وقد نشأ رحمه الله تعالى في طاعة الله ، فلم تُعرَفْ له صبوة في شيء
سوى الانكباب على العلم منذ حداثة سنه ونعومة أظفاره ، ملازماً مدرسته ، بعيداً
عن قراء السوء ، ولم يَتَزَوَّجْ مطلقاً ، وكنْتُ إذا عَرُضْتُ له بالزواج ورَغِبْتُ فيه ،
ينشدني قولَ المتنبي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُؤمِّلَ عنده حياةً وأن يُشتاقَ فيه إلى النُّسلِ
ثم يُتْبِعُ هذا البيتَ بأبياتٍ كثيرة في هذا المعنى من «اللزوميات» وغيرها .

وكان لا يُغْفِلُ التدقيق في أحوال الدنيا ومراقبة شؤونها وتلاعِبِها بأهلها ،
فكان يراها كما هي دارَ مَحَنَةٍ وشقاء ، نعيمُها زائل ، وظلُّ الحياة فيها متنقِّلٌ
باطل ، تعاقَبَ على أهلها السعادةُ والشقاء ، ولذا كان حُبُّ الدنيا الذي يعتري
قلوبَ عشاقها المتهاككين في طلبها وجمعِ حُطَامِها بعيداً عن قلبه .

فكان لا يَفْرَحُ بما أُوتِيَ ، ولا يَحْزَنُ على ما فاتَه ، نقيُّ الفؤاد من مرض
الحقد والحسد ، نفوراً من آفة الغيبة والنميمة ، حتى إنه كان لا يُقابِلُ من بلغه عنه
أنه حَسَدَه أو اغتابه بغير قوله : عفا الله عنه .

وكان مع هذه الخلال الحميدة سخيَّ الطبع ، يُحِبُّ التفضُّلَ على
الإخوان ، ولا يَقْصُرُ في برِّهم وإكرامهم ، كما أنه لا يقصر في التصدق على
الفقراء المُعْوزِينَ . وكان لا يتأخر عن إجابة من طَلَبَ منه قرصاً وإن عَلِمَ أنه غيرُ قادر
على الوفاء . وكان لطيب سريره لا يَظُنُّ السُّوءَ بأحد ، فكان عظيمَ الثقة بمن يَأْتِمَنُه
على ماله ، مكثِفاً منه بقوله .

وظائفه : ناهزَ رحمه الله تعالى سِنُ الخمسين ، ولم يكن له من الوظائف

المقررة سوى ٢٠٠ قرش في الشهر ، مع أنه في تلك السن كان قد اشتهر فضله ، وطار في العالم الإسلامي صيته ، وقصده رؤاؤ العلم وطلابه يأخذون عنه بعض ما أشكل عليهم حلّه من المسائل العلمية في فنون شتى ، وكان سبب قلة رواتبه عدم تعرضه لشيء من الوظائف ، صوناً لشرف العلم عن التبذل ، وقناعة بما يسر الله من كفاف العيش .

وأوّل وظيفة حازها : أمانة الفتوى ، ثم عُيّن مدرّساً في مدرسة سعد الله المَلْطِي في جامع الصّروِي في البياضة وفي مدرسة القرآنِية ، ثم عُرضت عليه وظيفة فتوى حلب ، وألحّ عليه أهل الحل والعقد بقبولها ، فلم يقبل رعاية للمفتي الذي كان يشغلها ، ثم انتخب نائباً عن حلب في مجلس النواب : المبعوثين في الأمانة .

ولما كانت الحرب العامة ، وأغلق مجلس النواب ، انتخب عضواً في محكمة الحقوق ، ثم عُيّن رئيساً فيها ، وبعد انقضاء الحرب عُيّن مدرّساً في المدرسة الرضائية ، ثم قاضياً في محكمة حلب الشرعية ، واستمر في هذه الوظيفة نحو ستين ، ثم عُيّن قاضي القضاة لدولة حلب ، وكان المرض قد ظهر في جسمه واستمر مشتداً إلى أن أدركته الوفاة .

الأخذون عنه : وبعد أن جاور في المدرسة الرضائية : جامع العثمانية ، شاع فضله ، فأقبل عليه كبار الطلبة يتلقون عنه العلوم الآلية والفنون الأدبية ، ولازمه جماعة من أدباء الأتراك وأفاضلهم ، منهم . . . ، ومنهم مظهر بك ابن بدري بك ، لازمه ملازمة طويلة ، وأخذ عنه كثيراً من العلوم الآلية والآداب العربية ، وأعانه الشيخ على ترجمة « ألفية ابن مالك » إلى اللغة التركية .

وممن لازمه من أفاضل الأتراك رفعت بك المناستيري ، صاحب المؤلفات الشهيرة عند الأتراك ، وهو الذي اقترح على الشيخ أن يُعرب المنظومة

الحِكْمِيَّة ، المعروفة باسم « ترجيع بَند » ، المنسوبة إلى ضياء باشا أحد فضلاء الأتراك ، وقد سُمِّيَ تعريبها : « حقائق الرُّند » ، ونَظَمَها نظماً بديعاً ، جَريئاً أن يُعَدَّ من نوع السهل الممتنع ، مع محافظته على مقاصد الناظم ، دون زيادة ولا نقصان .

وقد استعان رفعت بك بالشيخ على تفسير القرآن الكريم باللغة التركية ، ففسَّرَ منه نحو الثلاثين ، ثم أدركته منيته .

صفاته : كان رحمه الله عظيمَ الهامة ، بعيداً ما بين المنكبين ، مُشرقَ الوجه ، خفيفَ العارضين ، رقيقَ القلب ، يتأثر جداً لرؤية الفقراء وأرباب البلايا ، ومع ما كان عليه من الشفقة والحنان ، كان على غاية ما يكون من القوة والشجاعة وثبات الجأش ، لا يروِّعُه حادثٌ مهما كان عظيماً ، محبوباً عند الناس خاصيتهم وعاميتهم ، وكان تلامذته في الغاية القصوى من محبته واحترامه .

وكان عَذَبَ المنطق ، حُلُوَ الحديث ، نادرَ الفكاهة ، كثيرَ الصمت ، حسنَ التفهيم ، وقلَّما يتحدث بنادرة أدبية يعرفها أحدٌ من أهل مجلسه ، وكان يقرأ في المدرسة الرُّضائية تفسيرَ القرآن العظيم للقاضي البيضاوي ، فيرى منه كبار الطلبة : العَجَبَ العُجَاب ، في تقرير مسائله ، وكشفِ مخَبَّاتِ إشاراته ، وحلِّ ما في حواشيه من العبارات الغامضة ، والتراكيب المستغربة . وكان الشعرُ من بعض محاسنه ، إذا نظَّم في موضوعٍ جَمَعَ في نظامه البداعة والفصاحة وحسنَ البيان .

مؤلفاته : له عدة مؤلفات ، غير أنه كان لا يعبأ بما يؤلفه ، من ذلك كتاب في اللغة ، ضمَّنه جميع ما في « مختار الصحاح » من الكلمات اللغوية ، وجعلَه على أسلوب حكاية سائح ، يذكر فيه حكاية الكلمة ويعطِفُ عليها مرادفها تفسيراً لها . ومن ذلك كتاب في الفقه الحنفي ، لخص فيه كتاب « الدر المختار »

وحواشيه، وهو في مجلد ضخّم ، لكنه لم يكمل . ومنها عدّة مجاميع في حادثات الفتوى ، لو جُمِعت لبلغت مجلداً كبيراً ، غير أن هذه الكتب بقيت في مُسودّاتها ، ثم لَعِبَتْ بها أيدي الضياع ولم يبق لها من أثر !

أما مؤلفاته المطبوعة : فهي رسالة في التجويد ، وترجمة « ترجيع بند » ، ونَظْمُ « الشمسية » في علم المنطق ، وهو نظّم رائع متين ، لا يظهر فيه أثرٌ للتكلف كما يظهر ذلك في منظومات المتون العلمية . وله من المؤلفات التي لم تطبع تفسير مختصر مفيد ، يمكن طبعه على حاشية المصحف ، وقد بقي في مُسودّاته .

قال شيخنا العلامة الطباخ رحمه الله تعالى بعد نقله ما تقدم : « هذه خلاصة ترجمة أخيه الشيخ كامل الغزّي له ، وهو حريٌّ بما قاله فيه ، فقد كان رحمه الله آيةً من آيات الله في حفظ اللغة ، ومعرفة معاني غريبها ، وحفظ شواهداها ، وربما استشهد للكلمة الواحدة بالبيتين والثلاثة والأربعة من كلام العرب ، فكان يأخذنا لذلك منتهى العَجَب ، وكاد يأتي على حفظ « لزوم ما لا يلزم » و « سقط الزند » و « ديوان المتنبي » وغير ذلك ، مع فهم معاني ذلك حقّ الفهم .

وكنّا نرى أنه أجدرّ الناس بوضع شرح للزوميات أبي العلاء ، يوضح به ما هو مغلق فيه ، وهذا ما كنّا نتمناه ولكنه لم يوفق لذلك ، وله مع ذلك اليد الطولى في غير ذلك من العلوم ، مثل المعاني والبيان والمنطق والتفسير والحديث ، وقرأت عليه قسماً كبيراً من « صحيح البخاري » إلى كتاب الحج ، حينما قرأه في الجامع الكبير وفي المدرسة العثمانية : الرضائية .

وكان نظمه متيناً محكماً لا حشوفيه ، حسن السبك منسجماً ، غير أنه لم تكن عنايته به كثيرة ، لا ينظم إلا عند الاقتضاء والطلب ، ولم يعن بجَمْعِهِ ، فذهب ما صاغه من عُقُودِهِ كأن لم يكن !

والذي بقي محفوظاً من آثاره الشعرية : « منظومته للشسمية » في المنطق ، ومنظومته المسماة : « حدائق الرُّند في ترجمة ترجيع بُند » ، وهي محتوية على كثير من الحُكم والأمثال والمواعظ والحقائق ، ويُستشهد الآن بالكثير من أبياتها، وأولها :

ذَا مَعْمَلُ الصَّنْعِ الْعَجِيبِ مَكْتَبُ	نُقُوشُهُ عَنْ عِلْمٍ غَيْبٍ تُعَرِّبُ
وَفَلَكَ طَاحُونَةُ الْمَصَائِبِ	وَالنَّاسُ فِيهَا مِثْلُ حَبِّ ذَاهِبٍ
مُلْتَقِمًا أَفْرَاحَهُ كَالْجَفْرِ	وَهُوَ كَوَكْرِ الطَّيْرِ وَاهِي الْأَرْوِيهِ ^(١)
وَمَنْ يُحَقِّقُ يَجِدُ الْأَشْيَاءَ	مَنَامًا أَوْ خِيَالًا أَوْ هَبَاءَ
وَالْمَرْءُ عَنْ كَسْبِ الْيَقِينِ عَازِبُ	وَالْإِعْتِقَادُ عَنْ حِجَاهِ غَائِبُ
يَا رَبِّ مَا هَذَا الْعَنَاءُ وَاللَّدَدُ	وَحَاجَةُ الْمَرْءِ بِكُسْرَةٍ تُسَدُّ
لَا عَاصِمٌ مِنْ قَدَرِ السَّمَاءِ	بَلْ كُلُّ شَيْءٍ هَدَفُ الْقَضَاءِ
وَالْأَصْلُ أَنْ يَظْهَرَ مَقْدُورُ الْأَزَلِ	وَالْخَطُءُ وَالصَّوَابُ فِي النَّاسِ عِلَلُ
وَكُلُّ تَأْثِيرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ	لَا حُكْمَ لِلْأَفْلَاكِ وَالْأَزْمَانِ
سَبْحَانَ مَنْ قَدْ خَيَّرَ الْعُقُولَا	بِصُنْعِهِ وَأَعْجَزَ الْفُحُولَا

وهذا هو الفصل الأول . وقال في الفصل السادس :

يُفْتَرُ وَرْدُ وَالْهَزَارُ يَنْتَجِبُ	يُودِي الْعَلِيلُ وَالطَّيِّبُ يَكْتَسِبُ
وَجِيفَةُ الْمَيِّتِ الْغَنِيِّ مَغْتَنِمٌ	يَتَنَابُهَ الْعَافُونَ أَمْثَالُ الرَّخِمِ
نَامَ الْغَرِيبُ فِي تُرَابِ الدُّلِّ	وَارْتَفَقَ الْمُشْرِي وَسَادَ الدُّلِّ
وَازْدَهَرَ الشَّمْعُ بِمَجْلِسِ الطَّرَبِ	وَاحْتَرَقَ الْقَرَّاشُ مِنْ ذَاكَ اللَّهَبِ !
كَالنَّرْجِسِ الثُّومُ تَبَدَّى وَالْبَصَلُ !	وَالطَّيِّبُ قَدْ خُصَّ بِحَبْسٍ ذِي أَرْزَلِ !
قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا الْخَسِيسُ الْجَاهِلُ	وَعَاشَ فِي الدُّلِّ الْحَسِيبُ الْعَاقِلُ !

(١) العفوية : العفريت . والأروية جمع رواء وهو الرباط الذي يربط به الشيء .

وَرُبُّ ذِي جَهْلٍ لِدَوْلَةٍ مَلَكٌ وَرُبُّ ذِي عَقْلِ لِّلْقَمَةِ هَلَكٌ !
 قَدْ قِيلَ النَّاسُ اللَّثِيمُ الْمَفْسُدَا وَنَابَذُوا الشَّهْمَ النَّصِيحَ الْمُرْشِدَا
 كَمْ فَاضِلٍ لِّجَاهِلٍ مُسَخَّرٌ وَكَمْ أَدِيبٍ عِنْدَهُ مُحَقَّرٌ
 الْعَارِفُونَ رِزْقُهُمْ فِي هَبِطٍ وَالظَّالِمُونَ عَيْشُهُمْ فِي غَبِطٍ
 سَبْحَانَ مَنْ قَدْ حَيَّرَ الْعُقُولَا بِصُنْعِهِ وَأَعْجَزَ الْفُحُولَا

وهي على هذا النسق في اثني عشر فصلاً ، وكلُّها دُرُّو غُرَّر ، ولولم يكن
 له من النظم سواها لكفاه فخراً . وخلاصة القول فيه أنه كان علماً من الأعلام ،
 علامة في فنونه ، لم يخلُفه في الشهباء مثله . رحمه الله تعالى وأغدق على جدِّه
 سحائب رضوانه . انتهى بزيادة خبره مع شيخه محمد البدوي ، فإنني
 سجلته من سماعي .

١٩ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْفَرَّابِ

أستاذنا وبركتنا العبد الصالح الشيخ أبو الوفاء الأفغاني ، ثم الهندي ، المولود سنة ١٣١٠ ، والمتوفى سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى .

وهو العلامة المحقق الفقيه الأصولي المحدث الناقد المقرئ ، السيد محمود شاه القادري الحنفي ، ابن السيد مبارك شاه القادري الحنفي ، المشهور بأبي الوفاء الأفغاني ، ذو المآثر الباقية ، والمناقب العالية .

ولد في يوم النحر من سنة ١٣١٠ في بلدة قنّدهار من مدن أفغانستان ، ونشأ فيها تحت رعاية والده الشيخ الجليل السيد مبارك شاه القادري ، ثم سافر إلى الهند في صغره طالباً للعلم ، فتلقى العلوم من العلماء الكبار الذين أدركهم في بلدة رامبور ، ثم سافر إلى ناحية كُجرات ، وتلقى المعقول والمنقول من علمائها البارزين .

ثم قدم إلى مدينة حيدرآباد الدكن سنة ١٣٣٠ ، ودخل في عداد طلبة (المدرسة النظامية) فيها ، وتخرج بها ، وحصل الإجازات من شيوخها في الحديث والتفسير والفقه والقراءات بعد أن حفظ القرآن الكريم ، وكان من شيوخه فيها : الإمام الكبير الشيخ أنوار الله مؤسس (المدرسة النظامية ودائرة المعارف العثمانية) ، والشيخ الكبير عبد الصمد ، والشيخ عبد الكريم ، والشيخ محمد يعقوب ، والشيخ المقرئ الحافظ محمد أيوب ، والشيخ

الفقيه ركن الدين ، وغيرهم من أساطين العلوم في تلك الديار .

وفور تخرُّجِه أُسِنِدَ إليه التدريس والتعليم في المدرسة النظامية نفسها ، فزامل شيوخه ، ودرَّس الآداب العربية والفقه والحديث الشريف ، وعَلَّمَ وأفاد الطلاب والمستفيدين سنين طوالاً وأجيالاً متتابعة .

ثم رأى أن يؤسس هناك «لجنة إحياء المعارف النعمانية» لينشُر تحت إشرافها آثارَ سلفنا المتقدمين من الفقهاء والمحدثين ، فأُسِّس تلك اللجنة بمساعدة من زملائه ، وقامت بطبع كثير من الكتب النفيسة ، من فرائد مؤلفات أئمة القرن الثاني والثالث وما بعدهما ، وكان هو رئيسَ اللجنة بل كان هو اللجنة والقائم بأعمالها وإنجازاتها خير قيام ، يَبْذُل لها من وقته وماله وعلمه ما استطاع ، متطوعاً محتسباً لوجه الله تعالى .

وأنعم الله تعالى عليه بالحج إلى بيته الحرام ، فقصد الحجاز الشريف حاجاً ومعتماً ، والتقى بزمرة كبيرة من أفاضل علماء الإسلام ، وأخذ عنهم وأخذوا عنه ، واتسعت شهرته في آفاق أهل العلم ، فكان يلاقي العون من جميع الجهات العلمية ، التي ي كاتبها بشأن ما يبتغيه من المخطوطات والآثار النادرة ، حتى اجتمع لديه مكتبة غنية في الفقه الحنفي والحديث والرجال والتاريخ وغيرها من العلوم الاسلامية .

ونَشَرَ من النواذر الغالية بتحقيقه وتعليقه : كتاب الآثار للإمام القاضي أبي يوسف المتوفى سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى ، وكتاب الرد على سِير الأوزاعي لأبي يوسف أيضاً ، وكتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى لأبي يوسف ، وكتاب الأصل للإمام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى ، في عِدَّة مجلدات كبار ، وكتاب الجامع الكبير له أيضاً ، وشرح كتاب الآثار للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، وانتهى فيه إلى أواخر الجنائز بحلول وفاته رحمه الله تعالى .

وحقق كتاب مختصر الطحاوي في فقه الحنفية في مجلد كبير ، والجزء الثالث من التاريخ الكبير للإمام البخاري ، وكتاب النفقات للجصاص ، وأصول الفقه للسرخسي في مجلدين ، وشرح الزيادات للسرخسي ، ومناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد للمحافظ الذهبي .

وأشرف على طبع كتاب الحجة على أهل المدينة للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، الذي حققه وعلّق عليه الإمام المحدث الفقيه المفتي مهدي حسن ، في أربعة مجلدات كبار ، وعلى كتاب أخبار أبي حنيفة وأصحابه للإمام المحدث القاضي أبي عبد الله الصيمري المتوفى سنة ٤٣٦هـ . وعلى كتاب عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان للمحافظ المحدث محمد بن يوسف الصالحي الشامي الشافعي المتوفى سنة ٩٤٢هـ ، وعلى غيرها من الكتب النافعة النادرة .

واتخذ من نشر هذه النفائس والفرائد سلوة له عن الاثناس بالزوجة والأولاد ، وعاش عزباً فريداً ، متبتلاً متعبداً ، زاهداً ورعاً ، قائم الليل ، محافظاً على السنن النبوية كلّ الحفاظ ، يكره ترك المستحبات ، ويعمر أوقاته بالمطالعة والإفادة ، والتحقيق والتعليق ، وتلقين العلم لشباب العلماء والمستفيدين ، يقول كلمة الحق ، ولا يخاف في الله تعالى لومة لائم .

وكان جميل الطلعة ، منور الشية ، دخلت عليه بيته في حيدر آباد الدكن بالهند ، فرأته بيتاً متواضعاً خاوياً إلا من الكتب : مخطوطها ومصورها ومطبوعها ، وهي جائمة حواليه ينهل منها ويعلّ ، ويقدم ثمرات علمه للناس عسلاً مصفى .

أما منامه فهو على سرير متواضع من حبال ، يرتفع به عن النوم على الأرض ، لضعف جسمه ومرضه ، ومطعمه لقيمات ، وأكله في العشيات ، وليله للمناجاة ، تغمّر القناعة والرضا على معيشته التي هو عليها ، لا يزعجه

مزعج من نداء كبير أو صغير ، أو مُطالبة امرأة أو وليد ، همُّه الازديادُ من العلم ، والسعيُّ في نشره وإشاعته ، وما زال هكذا عيشه ، حتى أدركه الأجل في صباح يوم الاربعاء ١٣ من شهر رجب سنة ١٣٩٥ ، فلهق بجوار الله تعالى ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وجعلَه في علّين .

استفدتُ جُلَّ هذه الترجمة مما كتبه الأخ الفاضل الشيخ أبوبكر الهاشمي ، أحد الملازمين لشيخنا أبي الوفاء الأفغاني ، في آخر الجزء الثاني من كتاب « الآثار » للإمام محمد بن الحسن الشيباني بتعليق الشيخ أبي الوفاء وشرحه ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، دون أن يذكر فيها اسمه ، حفظه الله ونفع به .

٢٠ - وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الْعَرَبِ

العالمَةُ الفاضلة ، والمحدثَةُ الكاملة : كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ حَاتِمِ الْمَرْوَزِيَّةِ ، الملقَّبَةُ بِأُمِّ الْكِرَامِ وَسَيِّدِ الْكِرَامِ ، المولودةُ بِمَرْوَفِي سنة ٣٦٥ ، والمتوفَاةُ بِمَكَّةِ الْمُكَرَّمَةِ سنة ٤٦٣ رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى . ترجم لها الحافظ ابن الجوزي في « المنتظم » ٨ : ٢٧٠ ، في حوادث سنة ٤٦٣ ، فقال رحمه الله تعالى :

« وَتُوِّفِتْ بِمَكَّةَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ : كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي حَاتِمِ الْمَرْوَزِيَّةِ ، مِنْ أَهْلِ كُشْمِيْنَهَنْ ، قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ مَرْوَ ، وَكَانَتْ عَالِمَةً صَالِحَةً ، سَمِعَتْ أَبَا الْهَيْثَمِ الْكُشْمِيْنَهَنِيَّ وَغَيْرَهُ ، وَقَرَأَ عَلَيْهَا الْأَثَمَةُ كَالْخَطِيبِ ، وَابْنُ الْمَطْلَبِ ، وَالسَّمْعَانِي ، وَأَبِي طَالِبٍ « الزَّيْنِي » . انتهى .

وقال الحافظ الذهبي في « العبر » ٣ : ٢٥٤ ، في حوادث سنة ٤٦٣ أيضاً : « وَفِيهَا تُوِّفِتْ كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ حَاتِمِ ، أُمُّ الْكِرَامِ الْمَرْوَزِيَّةُ ^(١) الْمَجَاوِرَةُ بِمَكَّةَ ، رَوَتْ « الصَّحِيحَ » - أَيِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ - عَنْ

(١) هكذا جاءت نسبُها في غير كتاب : (الْمَرْوَزِيَّةُ) ، وهذه النسبة إلى (مَرْوِ الشَّاهِجَانِ) ، وترجم لها الزركلي في « الأعلام » ٦ : ٧٨ ، ونسبها بقوله : « الْمَرْوَزِيَّةُ » . أي بالراء المشددة المضمومة ، فالواو الساكنة ، فالذال المعجمة ، وقال : « وأصلها من مَرْوِ

الكُشْمِيهَنِي ، وَرَوَتْ عَنْ زَاهِرِ السَّرَخْسِي ، وَكَانَتْ تَضْبِطُ كِتَابَهَا ، وَتُقَابِلُ نُسَخَهَا ، وَلِهَافَهُمْ وَنَبَاهَةُ ، وَمَا تَزَوَّجَتْ قَطْ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا بَلَغَتْ الْمِثَّةَ ، وَسَمِعَ مِنْهَا خَلْقٌ .

الخاتمة

وبعدُ : فهؤلاء العلماء العُزَابُ الذين ذُكِرَتْ تراجُمُهُمْ هُنَا ، هُم مِنْ كِبَارِ أئِمَّةِ عُلُومِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ أَسَاطِينِ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ ، وَمِنْ أَرْكَانِ أَهْلِ الدِّينِ وَالتَّقْوَى وَالصَّلَاحِ ، وَهُم مِمَّنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ فَضْلُ الزَّوْاجِ عَلَى الْعُزُوبَةِ فِي الشَّرْعِ الْحَنِيفِ ، بَلْ قَدْ دَوَّنَ الْفُقَهَاءُ مِنْهُمْ فِي كُتُبِهِمْ وَمُؤَلَّفَاتِهِمْ فُضَائِلَ النِّكَاحِ وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَحْيِيْبٍ وَحُضٍّ وَأَمْرِ .

الرُّؤْدُ . انتهى . فَإِنْ صَحَّ هَذَا فَيَكُونُ الصَّوَابُ فِيهَا كَمَا قَالَ : (الْمَرْوُذِيَّةُ) ، وَلَكِنْ الْكُتُبُ كُلُّهَا تَتَّفَقُ عَلَى ذِكْرِهَا : (الْمَرْوُذِيَّةُ) .
وبعد كتابتي لما تقدمتْ وَقَفْتُ عَلَى مَا كَتَبَهُ الْأَخُ الْعَالِمُ الْفَاضِلُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ الطَّنَاحِي ، عَلَى « الْعِقْدِ الثَّمِينِ فِي تَارِيخِ الْبَلَدِ الْأَمِينِ » لِقَيِّ الدِّينِ الْقَاسِي ٨ : ٣١٠ ، عَلَى تَرْجُمَةِ (كَرِيمَةِ الْمَرْوُذِيَّةِ) ، وَذَكَرَ فِيهِ قَوْلَ الْأَسَازِ الزَّرْكَلِيِّ ، ثُمَّ تَعَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ :
« وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا مِمَّنْ تَرْجَمَ لَهَا ذَكَرَ ذَلِكَ ، وَقَدْ تَرْجَمَ لَهَا فِي « الْكَامِلِ » وَ « الْجَبَرِ » وَ « الشُّذْرَاتِ » وَ « الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ » وَ « تَاجِ الْعُرُوسِ » فِي (كَرَم) ٩ : ٤٣ ، وَكُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهَا (الْمَرْوُذِيَّةُ) ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِي « الْوَافِي بِالْوَفَايَاتِ » مَصُورَةً مَعَ مَخْطُوطَاتِ ج ٢٤ ، فَوَجَدْتُهَا أَيْضًا فِيهِ : (الْمَرْوُذِيَّةُ) . انتهى . فَمَا قَالَ الْأَسَازِ الزَّرْكَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَهَمْ لَا يَلْتَفَتُ إِلَيْهِ .

وَهُنَاكَ مُحَدَّثَةٌ أُخْرَى : (كَرِيمَةُ) مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ هَذِهِ ، تُسَمَّى : (كَرِيمَةُ الشَّامِيَةِ) ، ذَكَرَهَا الذَّهَبِيُّ فِي وَفَايَاتِ « تَذَكُّرَةِ الْحِفَازِ » ٤ : ١٤٣٤ ، فَقَالَ فِي وَفَايَاتِ سَنَةِ ٦٤١ هـ وَفِيهَا مَاتَتْ مُسَيِّدَةُ الشَّامِ أُمُّ الْفَضْلِ ، كَرِيمَةُ بِنْتُ الْمُحَدَّثِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْخَضِيرِ ، الْقُرَشِيَّةُ الزَّبِيرِيَّةُ ، تَوَفِيَتْ سَنَةَ ٦٤١ هـ عَنْ ٩٥ سَنَةٍ . انتهى .

و (كَرِيمَةُ) الشَّامِيَةِ هِيَ الَّتِي سَمِعَ مِنْهَا الْحَافِظُ أَبُو شَامَةَ الْمُقَدِّسِي ، الْوَارِدُ اسْمُهَا مُجَرَّدًا فِي تَرْجُمَتِهِ فِي « تَذَكُّرَةِ الْحِفَازِ » لِلذَّهَبِيِّ ٤ : ١٤٦١ ، وَ « طَبَقَاتِ الْحِفَازِ » لِلْسَّيْطُونِيِّ ص ٥٠٧ . وَقَدْ غَلِطَ الْغُلَطُ الْفَاحِشُ مُحَقِّقُ هَذِهِ « الطَّبَقَاتِ » أَقْسَمَ فِي الْفَهَارِسِ فِيهَا ص ٦٣٨ (كَرِيمَةُ) الَّتِي سَمِعَ مِنْهَا أَبُو شَامَةَ : (كَرِيمَةُ بِنْتُ أَحْمَدَ الْمَرْوُذِيَّةُ) ! وَهَذَا خَطَأٌ بَيِّنٌ ، فَكَرِيمَةُ الْمَرْوُذِيَّةُ مَاتَتْ سَنَةَ ٤٦٣ هـ ، وَأَبُو شَامَةَ وَلِدَ سَنَةَ ٥٩٩ هـ ، فَأَنَّى يَسْمَعُ مِنْ مَاتَتْ قَبْلَهُ بِنَحْوِ قَرْنٍ وَنِصْفٍ ؟ !

فاختيارهم العزوبة على الزواج ، مع علمهم وصلاتهم ، ورجولتهم وسلامتهم ، ما كان إلا إثارةً منهم لغيرهم على أنفسهم ، ليُفرَّغوا كل طاقاتهم لخدمة الدين والعلم ، وليذللوا أقصى جهدهم في بيان الشريعة الغراء وتدوينها وتقديمها للناس . ولا شك أن الإيثار مشروع في الإسلام ، ومحمودٌ فاعله ، فكم لهم من المنة والفضل في رقاب العلماء والناس .

وإذا كان الزواج أغضَّ للبصر وأحصن للفرج ، فقد أكرمهم الله تعالى بلباس التقوى والصلاح والزهد ، وحلَّاهم بحلية العلم والعمل ، فكان ما هم عليه من الخير مؤدياً إلى ذلك بفضل الله وبرحمته .

وإذا كان في القرب من الزوجة إيناسٌ لروح الرجل الزوج ، فقد رأوا في القرب من الكتاب والعلم إيناساً مثل ذلك أو فوق ذلك ، حتى قال بعضهم :

كِتَابٌ أَطَالَعُهُ مُؤْنِسٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْإِنْسَةِ
وَأَذْرُسُهُ فَيُزِينِي الْقُرْءُ نَحْوُ حُضُورِهَا وَأَعْظَمُهُمْ دَارِسُهُ

وإذا كان في الزواج حصولُ النسل والأولاد ، وبقاء الذكر بعد الوفاة ، فقد استعاضوا عن النسل والأولاد بما أبقوه من الكتب والمؤلفات .
قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى في هذا المقام :

يقولون : ذَكَرُ الْمَرْءِ يَحْيَا بِنَسْلِهِ وليس له ذِكْرٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَسْلٌ
فَقُلْتُ لَهُمْ : نَسْلِي بِدَائِعِ حِكْمَتِي فَإِنْ فَاتَنَا نَسْلٌ فَلِنَا بِهِ نَسْلُ

أورده المرتضى الزبيدي في « شرح الإحياء » ٦ : ٤٨٣ ، ٥٦٨ .

وقال شهاب الدين أبو الطيب أحمد بن محمد ، المعروف بالشهاب الحجازي ، العالم المتفنن ، والشاعر المفلق ، ذو التصانيف العديدة

والمباحث المفيدة ، المولود سنة ٧٩٠ ، والمتوفى سنة ٨٧٥ رحمه الله تعالى :

قالوا : إذا لم يُخْلَفْ مَيِّتٌ ذَكَرًا يُنْسَى ، فقلتُ لهم في بعض أشعاري :
بعدَ المماتِ أَصِيحَابِي سَتَذَكِّرُنِي بِمَا أُخْلَفُ مِنْ أَوْلَادِ أَفْكَارِي

أورده السخاوي له في ترجمته في « الضوء اللامع » ٢ : ١٤٨ .

وتقدم في ترجمة الزمخشري في ص ٧٨ قوله مفضلاً مؤلفاته على
البنين والبنات ، لأنها مبرأة من العقوق والمُتَعَبَات ، وذلك في قوله من
آيات :

مَا نَسَلْ قَلْبِي كَنَسَلِ صَلْبِي مِنْ قَاسٍ رُدُّ لَه قِيَاسَه
كَمْ بَيْنَ ذِي مَسْأَلِكٍ طُهُورٍ وَسَالِكٍ مَسْأَلِكَ الْخَسَاسَه
مَنْ سَاسَ أَبْنَاءَهُ فَلِنَا لِهَؤُلَاءِ الْبَنِينَ سَاسَه
وفي قوله أيضاً :

وَحَسْبِي تَصَانِفِي وَحَسْبِي رَوَاتُهَا بَيْنَ بِهِمْ سَيَقَبْتُ إِلَيَّ مَطَالِبِي
إِذَا الْآبُ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ ابْنِ عُقُوقِهِ وَلَا أَنْ يَعُوقُ الْإِبْنَ بَعْضُ النَّوَائِبِ
فَلِنِي مِنْهُمْ آمِنٌ وَعَلَيْهِمْ ، وَأَعْقَابَهُمْ أَرْجُوهُمْ لِّلْعَوَاقِبِ

وقال الإمام ابن الجوزي في أوائل كتابه « صيد الخاطر » ص ٢٠ :
« ينبغي للإنسان أن يسعى في تحصيل ذرية تذكر الله تعالى بعده ، فيكون
الأجر له ، أو يُصَنَّفَ كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولده المخلد ، يُنْقَلُ
من كتابه ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يمت :

قد مات قومٌ وهم في الناسِ أحياء ! »

وبعدُ فهذا ما تيسّر اختيارُهُ من تراجم العلماء العُزّاب الكبار ، وأخبار
احتراقهم بالعلم ، جَمَعْتُهُ رجاءً أن يكون حافزاً لمن يقف عليه من شباب أمتنا
الإسلامية ، من ذوي العلم والفطنة والهمة القعساء في مختلف العلوم ، فَتَحَرَّكَ
هِمُّهُمْ إلى العُلَياء ، وتأخَذَ عَزَمَاتُهُمْ إلى الصُّعْداء ، ويكونَ هذا الكتابُ خيرَ
حافزٍ لهم على تجديد الدين ونشرِ علومه وفضائله وآثاره ، واستعادة الريادة
والسيادة والقيادة، ويكون من ذلك الخيرُ العميمُ للإنسانية ، والله ولي التوفيق .



يقول جامعُه العبد الضعيف الفقير إلى الله تعالى : عبد الفتاح
بن محمد أبو غدة : فرغْتُ من جَمْعِ هذا الكتاب والنظَرِ فيه لَيْلَةً يوم
الجمعة ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠١ في مدينة الرياض ،
جعلهُ الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم ، ونفعني به يومَ القدومِ عليه ،
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، آمين.

المحتوى

- ١ - المصادر والمراجع
- ٢ - أسماء العلماء العُزَّاب المترجمين
وما حَوَّته تراجمُهم من الفوائد

١- المَصَادِرُ وَالْمَرَاجِعُ

اقتصرتُ فيها على ما عزوتُ إليه بالجزء والصفحة ،
وما طُبِعَ منها بالقاهرة أغفلتُ ذكرَ بلده .

- ١ - الآثار للإمام محمد بن الحسن الشيباني . طبع لجنة إحياء المعارف
النعمانية بالهند ١٣٩٥
- ٢ - الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي . مطبعة المنار ١٣٤٨ .
- ٣ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . دار المعرفة في بيروت دون
تاريخ .
- ٤ - أزهار الرياض في أخبار عياض للمَقْرِي . مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٣٥٨ .
- ٥ - أساس البلاغة للزمخشري . مطبعة أولاد أورفاند ١٣٧٢ .
- ٦ - الأعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الثانية المنتهية طبعاً ١٣٧٨ .
- ٧ - إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ . المطبعة العلمية بحلب
١٣٤٥ .
- ٨ - الاعتصام للإمام الشاطبي طبعة مطبعة السعادة أو طبعة مطابع شركة
الإعلانات الشرقية ، كلاهما دون تاريخ .
- ٩ - إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل

إبراهيم ، دار الكتب المصرية ١٣٧٤ .

١٠ - الأنساب للسمعاني . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن

بالبهند ١٣٨٢ .

١١ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير . السعادة ١٣٥١ .

١٢ - تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي . الخيرية ١٣٠٦ .

١٣ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩ .

١٤ - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه للحافظ ابن حجر . الدار المصرية

للتأليف والترجمة دون تاريخ .

١٥ - تمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي . المطبعة الوهية ١٢٨٥ .

١٦ - تذكرة الحفاظ للذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن ١٣٧٥ .

١٧ - تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة .

حيدر آباد الدكن ١٣٥٣ .

١٨ - ترتيب ثقات العجلي لتقي الدين السبكي (مخطوط) .

١٩ - تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ .

٢٠ - تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري . المؤسسة المصرية العامة

للتأليف ١٣٨٤ .

٢١ - الجمهرة في اللغة لابن دريد . حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ .

٢٢ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي . حيدر آباد الدكن

١٣٣٢ .

٢٣ - الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي . طبع القاهرة

بعد سنة ١٣٨٤ دون اسم مطبعة ولا تاريخ طبع .

٢٤ - الخصائص في النحو والعربية لابن جني . دار الكتب المصرية

١٣٧٦ .

٢٥ - خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للخزرجي .

بيروت الطبعة الثالثة ١٣٩٩ .

- ٢٦ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر . الطبعة الثانية حيدر
آباد الدكن ١٣٩٢ .
- ٢٧ - ذيل طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب . مطبعة السنة المحمدية
١٣٧٢ .
- ٢٨ - الزمخشري للدكتور أحمد الحوفي . دار الفكر العربي ١٩٦٦ .
- ٢٩ - سنن الترمذي . طبعة مصطفى الباوي الحلبي ١٣٨٤ .
- ٣٠ - السيد البدوي للدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة دون تاريخ .
- ٣١ - سِير أعلام النبلاء للذهبي . مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١ .
- ٣٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي . مكتبة
القدس ١٣٥٠ .
- ٣٣ - شرح إحياء علوم الدين للزبيدي . الميمنية ١٣١١ .
- ٣٤ - شرح ألفية الحديث للحافظ العراقي . فاس ١٣٥٤ .
- ٣٥ - شرح صحيح مسلم للإمام النووي . المطبعة المصرية ١٣٤٧ .
- ٣٦ - شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين للدكتور صلاح
الدين المنجد . دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٦ .
- ٣٧ - الصحاح في اللغة للجوهري بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار
الكتاب ١٣٧٦ .
- ٣٨ - صحيح الإمام البخاري بشرح فتح الباري . المكتبة السلفية
ومطبعها ١٣٨٠ .
- ٣٩ - صحيح الإمام مسلم . المطبعة المصرية ١٣٤٧ .
- ٤٠ - صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق محمد الغزالي . دار الكتب
الحديثة بمصر دون تاريخ .
- ٤١ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . مكتبة القدس ١٣٥٥ .

- ٤٢ - طبقات الحفاظ للسيوطي بتحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٣
- ٤٣ - طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى . مطبعة السنة المحمدية دون تاريخ .
- ٤٤ - طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٢
- ٤٥ - طبقات المفسرين للداودي . مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٢ .
- ٤٦ - طبقات المفسرين للسيوطي بتحقيق علي محمد عمر . مطبعة الحضارة العربية ١٣٩٦
- ٤٧ - العبر في خبر من عبر للحفاظ الذهبي . طبع حكومة الكويت ١٣٨٠ .
- ٤٨ - العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل . جامعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢
- ٤٩ - غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام . حيدرآباد الدكن ١٣٨٤
- ٥٠ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري . عيسى البابي الحلبي ١٣٦٤ والطبعة الثانية ١٩٧١ م .
- ٥١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحفاظ ابن حجر ، المتقدم برقم ٣٨ .
- ٥٢ - القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية المصرية ١٣٤٤ .
- ٥٣ - كنوز الأجداد لمحمد كُرد علي . مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٠ .
- ٥٤ - لسان العرب لابن منظور . طبعة بولاق ١٣٠٠ .
- ٥٥ - لسان الميزان للحفاظ ابن حجر . حيدرآباد الدكن ١٣٢٩
- ٥٦ - مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار لمحمد طاهر الفتني الهندي . دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن بالهند ١٣٨٧ .
- ٥٧ - المخصّص في اللغة لابن سيده . مطبعة بولاق ١٣١٦ .

- ٥٨ - المستدرك على الصحيحين للحاكم . حيدر آباد الدكن ١٣٣٤ .
- ٥٩ - المسند للإمام أحمد . المطبعة الميمنية ١٣١٣ .
- ٦٠ - المسند للإمام أحمد بتعليق الشيخ أحمد شاکر . دار المعارف ١٣٦٨ .
- ٦١ - المصباح المنير في اللغة للفيومي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩ .
- ٦٢ - المصنوع في معرفة الحديث الموضوع لعلی القاري . الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٨ .
- ٦٣ - معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥ .
- ٦٤ - معجم الأدباء لياقوت الحموي . طبعة الدكتور مرجليوث بمطبعة هندية بالقاهرة ١٩٣٠ .
- ٦٥ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٦٦ .
- ٦٦ - المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي . دار الأدب العربي ١٣٧٥ .
- ٦٧ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم . دار القلم بيروت ١٣٩٠ .
- ٦٨ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي . مطبعة عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .
- ٦٩ - نزهة الألباء في تراجم الأدباء لابن الأنباري بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر ١٣٨٦ .
- ٧٠ - نزهة الألباء في تراجم الأدباء لابن الأنباري بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي . الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٠ .
- ٧١ - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير . مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣ .

٧٢ - هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر . دار الطباعة المنيرية

. ١٣٤٧

٧٣ - الوابل الصيَّب من الكلم الطيب لابن القيم . دار الطباعة المنيرية

. ١٣٥٧

٧٤ - الوافي بالوفيات للصالح الصفدي . طبعة فرانز في تركيا ١٣٨١ .

٧٥ - وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان . المطبعة الميمنية ١٣١٠ .

٢ - أسماء العلماء العُزَّاب المترجمين وما حَوَّته تراجمُهم من الفوائد

الصفحة

- ٦-٥ مقدمة الكتاب والباحث على تأليفه
مقدمة حول عزوبة العلماء العُزَّاب ، وفيها الإشارة إلى مشاق العزوبة ،
وإلى أثر العزوبة على الفكر والسلوك ٨-٧
الجواب عن مسلك هؤلاء العلماء في إثارة العزوبة على الزواج ، وبيان
أنه مسلك شخصي لهم ، لزيادة التفرغ في خدمة العلم والدين ونفع
المسلمين ، وأن الزواج - على فضله - مَشْغَلَةٌ وذكر النصوص الدالة
على ذلك ٩-١٠
ذكر حديث : والله إنكم لتُبْخُلون وتُجْبِنون وتجهلون وحديث : إنَّ
الْوَلَدَ مَبْجَلَةٌ مَجْهَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ ١١
قول سيدنا عمر : تفقهوا قبل أن تُسَوِّدُوا وتفسر معناه ١١
استحباب العلماء لطالب العلم أن يكون عَزَبًا ما أمكنه ليتفرغ للعلم ١٢
تبرُّم الحافظ ابن زياد النيسابوري بزواجه
إذ شَغَلَه عن الانهماك في العلم ١٣
ذكرُ كلمة بِشْر الحافي : ضاع العلم في أفخاذ النساء، وبيان
المراد منها ١٤

احتياؤ أهل صنعاء اليمن على المحدث مَعْمَر بن راشد البصري
 ليبقى عندهم فقيدوه بالزواج منهم ١٤

بيتان من الشعر في أن الزواج يُعَدُّ من القيد والعذاب ١٥

ذكر الإمام الغزالي لبعض آفات الزواج وأنه قد يكون شاغلاً عن الله تعالى . وبيان أن الحكم بأفضليته على العزوبة مطلقاً : من قصور

العلم بالأحكام ١٥ - ١٧

بحث الإمام الشاطبي لحكم بعض التروك ومنها ترك الزواج ١٧ - ١٨

ذكره أن المندوب أو المطلوب قد يسقط إذا تسبب عنه الوقوع في ممنوع

... وموازنته بين العزلة المقبولة والعزلة المردودة ١٨ - ٢٠

توجيه الشيخ عبد الحليم محمود لاعتذار السيد البدوي عن الزواج
 بالمرأة التي عَرَضَتْ نفسها عليه ٢٠

ذكر الخطة في إيراد أخبار العلماء العُزَّاب واختيارها في هذا الكتاب ،
 والغاية منها ٢١

تحقيق لغوي مسهب ببيان الصيغ اللغوية التي يوصف بها الرجل أو
 المرأة حال العزوبة ٢٢ - ٢٥



١ - من العلماء العزَّاب : التابعي الجليل المفسر المحدث عبد الله بن
 أبي نَجِيح المكي ، وذكر بعض فضائله ومناقبه ٢٦

٢ - من العلماء العزَّاب : الإمام يونس بن حبيب النحوي البصري ،
 وذكر بعض مآثره ونسله من بنات أفكاره ٢٨

التنبيه تعليقاً على أن تلمذة المتقدمين على شيوخهم الأئمة كانت
 تمتد ٤٠ سنة و ٢٠ سنة و ١٠ سنين ، فأخرجتهم أئمة بملازمة الأئمة ، ونقد
 حال الدارسين اليوم ! ٢٨

- ٣ - من العلماء العزَاب : المحدث المقرئ الزاهد حسين بن علي الجعفي الكوفي ، وذكر شيء من فضائله ٣٠
- بيان المراد بقولهم في لقب العالم الكبير : (شيخ الإسلام) عند المتقدمين والمتأخرين ٣٠
- ٤ - من العلماء العزَاب : المحدث الفقيه الزاهد الإمام بشر الحافي المروزي ثم البغدادي ، وذكر جملة من فضائله ومناقبه وورعه ٣٢
- قول الإمام أحمد : لو كان بشر متزوجاً لما ترك بعده مثله وثناؤه عليه ٣٣
- ثناء الإمام إبراهيم الحربي على شيخه بشر الحافي ثناء لا نظير له في مدح عاقل ٣٤
- ثناء الخطيب البغدادي والدارقطني على بشر الحافي ، وذكر حشود أهل بغداد في جنازته ، وأن يوم الجنائز كان عند السلف علامة الإمامة في السنة ٣٤
- ٥ - من العلماء العزَاب : الحافظ المحدث القدوة هناد بن السري الكوفي وذكر لمع من فضائله وتعبده ٣٦
- ٦ - من العلماء العزَاب : الإمام العَلَمُ ابن جرير الطبري ثم البغدادي ، وذكر جُمْل من فضائله ومناقبه ومآثره العلمية في تفسيره وتاريخه ٣٧
- ضبط نسبة (إسفراني) وبيان أن فيها سبعة وجوه ٣٨
- تقسيم تلامذة ابن جرير أوراق مصنفاته على أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى مماته ، فصار لكل يوم ١٤ ورقة ٣٩
- حفظ ابن جرير القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكتابتها الحديث في سنن ٣٩
- تسع سنين ٣٩
- ذهاب ابن جرير لبعض شيوخه في بدايته : عَدَواً من قرية لقرية ليدرك مجلسه ٣٩

حفظُ ابن جرير لكل ما يَسْمعه من الشيخ ، وكان هذا سبباً لتحديث بعض الشيوخ العسريين له ولمن معه من الطلبة بسبب قُوَّة حفظه ٤٠
امتحان العلماء لعلم ابن جرير حين اشتهر صيته بالعلم في كل بلد دخله ٤٠

دراسته العروض في ليلة ثم إجابته فيه خير إجابة في صبيحتها ، وإمامته في علوم القرآن والقراءات والتاريخ والفقه واللغة والنحو والشعر ٤٠ - ٤١
جودة تلاوته للقرآن حتى كان يقصده العلماء القراء والناس لسماعه ٤٢

تجملُهُ في ظاهره وباطنه ومأكله وملبسه ، نظافة ثيابه وظرافة أكله وجميل محادثته لأصحابه عند الطعام بما يزخر بالفوائد العلمية الغالية ٤٣
امتناعه من قبول هدية لا يستطيع المكافأة عليها ، وذكر أخبار له بذلك ، وتواضعه بالإجابة عند سؤاله عن نسبه ، وثناؤه على أبي حنيفة ٤٤ - ٤٥
رفاهته في عيشه ومناحه - عند بلوغه الإمامة - ونظام وقته واشتغاله بالعلم في داخل بيته وخارجه ، ومحافظة على دقائق زمنه ، وحرصه على تسجيل الفائدة العلمية بالكتابة قبل موته بساعة ٤٦

احتشادُ الخلق في بغداد على جنازته ، وذكرُ من أُلِف في سيرته ٤٧
رثاء الإمام ابن دريد له بقصيدة رثانة بليغة من أبلغ الرثاء ٤٨ - ٥٠
ذكرُ قصيدة عبد الرحمن الخولاني في رثاء عصرِيهِ المؤرِّخ ابن يونس الصَّدفي المصري ، لتجانسها مع قصيدة ابن دريد ٥١

٧ - من العلماء العزَاب : المفسر الأديب الحَفَاط أبو بكر بن الأنباري البغدادي ، وذكر بعض مآثره في الجفاظ على علمه وحفظه ووقته ٥٢
كشفُ تحريفات فاحشة سَرَت على جملة من المحققين في كلمة (جيري) ، فقف عليها لزماً ٥٣ - ٥٥

حفظه ثلاث مئة ألف بيت شواهد في القرآن ، وسرعة حفظه وبديته وشدة

ذكائه وفطنته . . . وتعلّمه علم التعبير للرؤيا في ليلة ٥٦

تواضعه وخضوعه للحق وإعلانه عن خطئه وثناؤه على من نبّهه إليه ٥٦

قصة اخشيائه في المطعم رعاية لحفظه ، بما لا يُقضى منه العجب ٥٧

صرفه الجارية العروس وقد دخلت بيته ، لاشتغال قلبه بها عن مسألة علمية ٥٨

٨ - من العلماء العزّاب : إمام العربية أبو علي الفارسي ثم البغدادي ،

وذكر شيء من فضائله ومآثره في العلم ٥٩

ذكر نسله وذريته من بنات أفكاره وقلمه وثناء تلميذه ابن جني عليه ٦٠

التنبية تعليقاً على خطأ فاحش وقع لأربعة من كبار المحققين في اسم (أبي

اليمن الكندي) في تقدمتهم لكتاب «الحجة» لأبي علي الفارسي ٦١

٩ - من العلماء العزّاب : إمام المحدثين في عصره أبو نصر السّجزي ثم

المكي ، وذكر شيء من فضائله وأخباره ، إعراضه عن زواج امرأة

قدمت له ألف دينار ليتزوَّجها ! ٦٢-٦٣

١٠ - من العلماء العزّاب : الحافظ الفقيه أبو سعد السّمان الرازي

البصري ، وذكر شيء من أخباره ومآثره ، وأنّ شيوخه بلغوا

٣٠٠٠ شيخ ٦٤-٦٥

استبعاد الحافظ الذهبي أن يكون عدد شيوخه ٣٠٠٠ شيخ ، وتحقيق

أن هذا ممكن بل واقع ، مع ذكر شواهد ناطقة بذلك من كلام

الذهبي نفسه ومن كلام غيره ٦٥-٦٦

أبو سعد السّمان عاش ٧٤ سنة ولم يُدخل إصبعه في قصعة إنسان ٦٦-٦٧

١١ - من العلماء العزّاب : الحافظ العالم أبو البركات الأنماطي

البغدادي ، وذكر شيء من فضائله ومآثره في العلم ، وانتفاع ابن الجوزي

ببكاائه أكثر من روايته ٦٨-٦٩

- ١٢ - من العلماء العزاب : المفسر الفقيه الأديب الحجة اللغوي أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي ، وذكر بعض شيوخه وتأثره بشيخه أبي مضر ، ورثاؤه له بأبلغ الأبيات في الرثاء ٧٠ - ٧١
- التنبيه تعليقاً على خطأ وقع للدكتور أحمد الحوفي في كتابه «الزمخشري» إذ استبدل فيه رجلاً برجل ظناً منه أنه الصواب وهو خطأ ٧١ - ٧٢
- ذكر جملة من شيوخ الزمخشري وترجمة شيخه أبي الخطاب ابن البطر ٧١ - ٧٢
- التنبيه تعليقاً على خطأ وتحريف وقع للدكتور الحوفي في ترجمته أبا الحسين أحمد الدامغاني ! ٧٣ - ٧٤
- التنبيه تعليقاً على خطأ آخر فاحش جداً وقع للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، في جعله القفطي المولود سنة ٥٦٨ لقي الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ في سنة ٥٣٣ ! ومتابعة الدكتور الحوفي له في ذلك كل المتابعة ! ٧٣ - ٧٤
- قراءة الزمخشري وهو في سن ٦٦ على الجواليقي في بغداد واستجازته منه ٧٣ - ٧٤
- التقاء الزمخشري في طريقه للحج بآبن الشجري في بغداد ، وما جرى بينهما من المطارحة الأدبية اللطيفة ٧٤
- ارتحال الزمخشري من خوارزم إلى مكة وقد قارب ٥٠ من العمر ، ليقراً «كتاب سيبويه» على العالم النحوي الاندلسي أبي بكر الإشبيلي ٧٥
- قصّد العلماء من مختلف البلدان إلى الزمخشري بخوارزم للتلقي عنه ، واستجازة الحافظ السلفي منه ، وإجازته له مما يدل على كمال تواضعه ٧٥
- إقامة الزمخشري بمكة مجاوراً بيت الله تعالى حتى هبت على كلامه رياح بادية العرب ، وذكر بعض فضائله ومزاياه ٧٦

- ٧٦ ذكر أبيات لطيفة للزمخشري في شأن العلم وحُبه وتفضيله
- ٧٧ اعتذار الزمخشري في بعض شعره لاختيار العزوبة على الزواج
- ٧٧ ذكرُ اعتذار ابن مكي الصِّقْلِي في إثارة العزوبة على الزواج وهو ألطف
- ٧٨ استغناء الزمخشري بمؤلفاته واعتداده بها نسلاً له وذُرِّيَّةً وأولاداً
- ٧٩ ذكرُ ما تركه من نسل أفكاره وبنات أقلامه من المؤلفات النفيسة
- تحذير ابن أبي جَمْرَةَ الأندلسي من قراءة كتب الزمخشري خشية الوقوع
في اعتزاله المعروف ٨٠
- ثناء الحافظ ابن حجر على جملة من مؤلفات الزمخشري : أساس البلاغة
والفائق والمفصل والتفسير ٨٠
- ١٣ - من العلماء العزّاب : إمام النحو والعربية والتفسير والقراءات
والحديث والأدب واللغة ابنُ الخشاب البغدادي الحنبلي ٨١
- ذكرُ جملة من شيوخه وفُضائله ، وحلاوة قراءته للحديث وسلامتها
من أقل لحن ٨١ - ٨٢
- مطالعته الكتاب أثناء مرضه ، وقوله : إنه يعرف سبعين شاهداً من سبعين
قصيدة لمسألة نحوية عَجَزَ ابنُ جني أن يأتي لها بشاهد واحد ٨٢
- ذكرُ ما كان عليه من التبذل في عيشه وملبسه ، وتهاونه برفعة العلم ،
واتساعِ عمامته حتى تسودُ ! وكيفية لبسه لها ! ٨٣
- اتساعُ مكتبته حتى عَشَّشَتْ فيها الطيور ، وتصرفه غير الحسن بالكتاب
إذا أراد شراءه ، وحَجَبُه الكتاب المستعار عن صاحبه بدعوى
عدم إمكان لقائه له ٨٣
- كتابته الخط الحسن واعتناؤه فيه بالضبط المتقن ، وتحصيله من كتب
الأصول وخطوط الفضلاء ما لا يدخل تحت الحصر ٨٣ - ٨٤
- اشتراؤه كتب العلماء من تركاتهم جَمَعَ له أصول المشايخ النادرة ، وحَمَلَهُ
كتب العلم في كُمه دائماً ٨٤

بيعه داره بخمس مئة دينار من أجل شراء كتب عُرضت للبيع وليس عنده

٨٤

ثمنها

٨٤

ذكر بعض أفراد ذريته في العلم والتأليف

١٤ - من العلماء العزاب : فقيه الحنابلة في عصره ناصح الدين الحنبلي

البغدادي المعروف بابن المني ، وذكر جملة من مناقبه في تحصيل العلم ،

وأنه أفتى ودرّس نحواً من سبعين سنة ، وكان أكثر طعائمه الباقلاً -

القول - !

٨٥ - ٨٦

ذكر لمع من فضائل أخلاقه وتعبده وزهده وانتفاع الناس به

٨٧ - ٨٦

احتشاد أهل بغداد يوم موته لتشيعه يتبركون به لصلاحه وعلمه . . .

٨٨

١٥ - من العلماء العزاب : الوزير العالم المتفنن جمال الدين القفطي

ثم الحلبي ، وذكر شيء من حال نشأته واتساع دائرة علومه . . .

٨٩

ذكر طائفة من بنات أفكاره ومخلفات قلمه وفكره العالي

٩٠

ذكر اتساع مكتبته فكانت تساوي ٥٠ ألف دينار في ذلك العصر

٩١

١٦ - من العلماء العزاب : إمام العلماء وعلم الأولياء الإمام النووي الدمشقي ،

وذكر شيء من بدء نشأته ، وأنه كان يحضر على الشيوخ في كل يوم

١٢ درساً

٩٢ - ٩٣

انقباض قلبه من دراسة الطب في « قانون ابن سينا » ، وانشراحه

للحديث الشريف وكتبه وعلومه ، وقراءته النحو على ابن مالك إمام

النحاة

٩٣ - ٩٤

تخشّن عيشه في مأكله وملبسه وأحواله وشدة زهده وورعه ، ومداومة صومه ،

وامتناعه من قبول الهدية ممن انتفع بعلمه

٩٤ - ٩٥

مواجهته الملوك والظلمة بالإنكار عليهم والكتابة إليهم بأسلوب رصين

وأدب رفيع يلاقي مقامه العالي ، وفزع الملك الظاهر منه

٩٥ - ٩٦

ذكر بعض مخلفاته وذريته الباقية من الباقيات الصالحات إلى ما شاء الله

٩٦

محافظة على الوقت دائماً ، وذكر بيتين لطيفين للإمام تقي الدين السبكي

في الابتهاج بقيامه في دار الحديث التي كان يقيم فيها النووي ٩٧

ذكر من أُلّف من العلماء في سيرة الإمام النووي رحمه الله تعالى ٩٨

١٧ - من العلماء العزّاب : شيخ الإسلام وعَلَّمَ الأعلام ابنُ تيمية الحراني

الدمشقي ، وذكر شيء من حال نشأته وبعض شيوخه وتطوافه لتحصيل

العلم ٩٩

ثناء الحافظ الذهبي عليه بالوان من الفضائل ، وقوله : انفرديتأوى نيل

من عرضه لأجلها ، ووصفه له بدقة الفهم والحدق في العلم واتساع

المعرفة وعدم التقيد بمذهب ، وبأنه لم يَرِ مثلاً نفسه في

العلم ١٠٠-١٠١

وصف الذهبي له أيضاً بعنايته بالحديث وباقي العلوم وإحكامه لها وهو

ابن بضع عشرة سنة ! مع العفاف والتعبد والزهد ١٠١-١٠٢

تطبيق شهرته الآفاق وسعة علمه في التفسير والرجال والحديث بحيث

يصح أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ١٠٢

قوة استحضاره للآيات في الاستدلال وتمكنه من أصول الفقه وعلم

الكلام والرد على الفلاسفة ، وكثرة تصانيفه ، بحيث إنها تقدّر

بـ ٥٠٠ مجلد ١٠٢-١٠٣

طول باعه في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، ومخالفته للمذاهب

الأربعة في مسائل معروفة . . . ١٠٣

نصره السنة ، وجُرّأته في إطلاق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرين ،

ومعارضة العلماء له في ذلك ١٠٣

ذكر شيء من أخلاقه الذاتية وتعبده وتعلق الناس به ويشجاعته ١٠٣

اجتماع ابن دقيق معه وثناؤه عليه ، وقوله : لم أناظره لأنه يُحبُّ الكلام

وأُجبُّ السكوت ١٠٣

ثناء أبي حيان الأندلسي عليه ، وشَّده من عزم السلطان في وقعة

شَقَّحَب مع التتار حتى كتب الله النصر للمسلمين ١٠٤

قول الذهبي : إن فيه قلة مداراة وتعجلاً في بعض المواقف وإنه لم يكن من

رجال الدُّول . . . وأعان أعداءه على نفسه بدخوله في مسائل كبار

أشار إليها . . . ١٠٤

عدم اهتمامه بأمور الطعام والدنيا ، ورأيه في أحوال بعض المشايخ أنها

شيطانية ، ومعافاة بعض المصابين بِمَسِّ الجن بتلاوته وتهديده للجني ١٠٤

قوله في منع السفر لزيارة قبور النبيين ، ومخالفة العلماء له بشدة ، وحسُّه

على إثر ذلك بقلعة دمشق حتى أتاه اليقين ، واحتشاد الخلق بدمشق

لتشييعه رحمه الله ١٠٥

ثناء الذهبي أيضاً على علمه واستحضاره للآيات والأحاديث ،

وعزوها لمصادرها بشكل يُذهل العارفين الحفاظ ، ومعرفته بأقوال

الفرق الضالة ١٠٥-١٠٦

شدة نَهْمِه العلمي بحيث لا يَرَوِي من مطالعة ، ولا يَمَلُّ من الاشتغال

وَيُسْتَدْرِك على حُذَاق أهل كل علم ١٠٦

ثناء تلميذه المؤرخ الصِّلَاح الصَّفْدي عليه ، ووصفه لمجلسه ومقدرته

العلمية النادرة وتفردِه بالإمامة ١٠٦

إنشأه كثيراً لبيّتي الشاعر صُرُورٌ : تَمَوْتُ النفوسُ بأوصابِها . . . ١٠٧

نقدُ الصفدي له في تضييع الوقت بالرد على النصارى والرافضة ، وأنه لو

صَرَفَ وقته في خدمة التفسير والحديث ، لكان له مِنَّةٌ عظيمة في عنق كل

عالم ، وذكرُه شيئاً من حال نشأته العلمية ١٠٧

ثناء تلميذه الحافظ ابن عبد الهادي والإمام والمِزِّي وابن الزَّمَلْكَاني عليه ١٠٨

نقل الحافظ ابن رجب ثناء الإمام تقي الدين السبكي عليه وعلى علمه

وزهده وورعه ، وذكر غرابة وجود مثله في زمانه بل من أزمان قبله ١٠٨

ثناء جمال الدين السُّرْمَرِيِّ على سرعة حفظه لما يقرأه من مرة واحدة ١٠٩
قول الذهبي : من خالطه قد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه

قد ينسبني الى التغالي فيه ، وأوذيتُ من الفريقين ! ١٠٩

قول الذهبي : أنا مخالفٌ له في مسائل أصلية وفرعية ، ثم ثناؤه العظيم

على علمه ، ثم نقده لبعض مواقفه ، وذكره لكثرة ابتهاله وتعبده ... ١٠٩
حبسه بقلعة دمشق ، وتأليفه وتصنيفه فيها ، وفتحُ الله عليه في الحبس

بما لا يُقَدَّرُ على شكره من العلوم والفهوم والأحوال ... ١٠٩

إخبار تلميذه ابن القيم بما كان عليه الشيخ من الانشراح حال حبسه

بقلعة دمشق وذكر جملة من أقواله البليغة المشرقة الصافية فقف عليها

لزماً ، ثم ثناء ابن القيم على صبره وسكيتته في قلب السجن ... ١١٠

إكثاره من التلاوة والأذكار كل يوم صباحاً حتى صار ذلك له غذاء ١١١

قول ابن القيم : كثرةُ الذكر تُفَسِّحُ الزمن وتعين على

الإنجاز وتزيد في القوة ... وقد شهد ذلك كله في حال الشيخ

الذُّكَّار ابن تيمية رحمه الله تعالى ١١١

الإشارة إلى ما خَلَفَهُ من نسل أفكاره وأنه زاد على خمس مئة مجلد وأنه

لا يمكن حصره ... ١١٢

١٨ - من العلماء العزَاب : القاضي الفقيه المفسر المحدث الشيخ

بشير الغَزِّي الحلبي ، وذكر كلمات من حال نشأته وبعض شيوخه ،

وفي ظهور نبوغه منذ بدايته وكونه صَنَاعَ اليدين ... ١١٣ - ١١٤

حفظه « ألفية ابن مالك » في النحو في عشرين يوماً ، واستيعابه حفظاً جملة

وافرة من أشعار العرب ومختارات الأدب وجُلُّ متن « الكنز » في الفقه

الحنفي في مدة وجيزة ١١٤

تميُّزه بحسن الصوت النَدِّي وجمال التلاوة للقرآن الكريم ، وقصدُ الناس

لسماعه والصلاة خلفه لذلك ١١٤

- ذكر جملة من أساتذته وما قرأ عليهم ، واشتغاله بفنون العصر أيضاً ١١٥
 حرصه على اقتناص الفوائد وحل العويصات بمصاحبه لشيخه محمد
 البدوي ، وتلطفه باسترضائه له حين أعرض الشيخ عنه ١١٥ - ١١٦
 سعة حفظه واطلاعه على كتب اللغة العربية ومعاجمها ، ومعرفته بمفرداتها
 ذات المعاني الجامعة والمعبرة عما جدد من الآلات والمسميات
 والأعمال في عصرنا الحاضر ١١٦
 طهارة نشأته من صغره ، وانكبابه على العلم من بدايته ، وإعراضه
 عن الزواج خوف مغيباته . . . ١١٧
 فهمه للحياة وانتباهه لتقلب أحوال الدنيا وعدم اغتراره بنعيمها . . . ١١٧
 سخاؤه وكرمه وإجابته لمن استعان به ولو كان قد أساء إليه من قبل ١١٧
 وظائفه التي قام بها واشتهر فضله فيها في العالم الإسلامي ١١٧
 تلامذته والأخذون عنه من عرب وغير عرب . . . ١١٨
 صفاته الخلقية ومزايه الشخصية في السلوك والعلم والأدب والفصاحة ١١٩
 مؤلفاته وبنات قلمه التي خلفها ذريةً صالحةً من بعده . . . ١١٩
 ثناء تلميذه شيخنا العلامة الطباخ عليه وأنه كان حَفَاطَةً أعجوبة ، وقرأته عليه
 الحديث الشريف ١٢٠

ذكر شيء من نظمه الرفيع في الحكيميات ، وهو من بديع اللفظ والمعنى

١٢١ - ١٢٢

- ١٩ - من العلماء العزاب : العلامة الفقيه الأصولي المحدث شيخنا أبو
 الوفاء الأفغاني ثم الهندي ، وذكر شيء من حال نشأته وطلبه للعلم
 وارتحاله من بلده إلى الهند لذلك ١٢٣
 قوة نبوغه وسرعة توظيفه بعد تخرجه في المدرسة النظامية ليزامل شيوخه
 الكبار في التعليم ١٢٤
 تأسيسه (لجنة إحياء المعارف النعمانية) التي نشرت نفائس كتب السلف
 من مؤلفات القرن الثاني للهجرة ١٢٤

إشرافه على جملة من أمهات كتب الفقه والأصول والحديث للحنفية وبعض

كتب تراجم أئمتهم ١٢٤

اتخاذها الاشتغال بالعلم والتحقيق سلوة عن الزوجة والأولاد ، وإكثاره من التعب

والخدمات العلمية لكل مستفيد ١٢٥

ذكر بعض صفاته الخلقية والخُلُقِيَّة رحمه الله تعالى ١٢٥ - ١٢٦

٢٠ - من أهل العلم العزاب : العالمة المحدثة الفاضلة كريمة المروزية ثم

المكية ، وذكر شيء من حالها العلمية ، وذكر بعض من رَوَتْ عنه

وَرَوَى عنها ١٢٧

التنبيه تعليقاً على خطأ وقع للأساذ الزركلي في ضبط نسبتها . . . ١٢٧

التنبيه تعليقاً أيضاً على خطأ وقع لمحقق « طبقات الحفاظ » للسيوطي

في تسميتها ونسبها وجعلها من أهل القرن السادس ! ١٢٨

خاتمة : في بيان أن هؤلاء العلماء العزاب لم يجهلوا حكم الزواج وفضله

ونفعه ، ولكنهم آثروا العلم عليه ليتفرغوا لخدمة الدين ونفع المسلمين

١٢٨

ذكر شعر لبعض العلماء في أن القرب من الكتاب آنس

له من الزوجة ١٢٩

إيراد جملة من الأشعار في أن ذرية العالم المخلدة هي مؤلفاته وبنات

أفكاره ، وأن الزمخشري فضلها على الأولاد لوقوع العقوق منهم ١٣٠

قول الإمام ابن الجوزي : إن تصنيف العالم ولده المخلد . . . ١٣٠

كلمة الختام في رجاء أن يتنفع هذا الكتاب قارئيه من شباب الإسلام ، فيكون

حافزاً لهم على إعادة المجد الإسلامي في مختلف العلوم التي

كان عليها أسلافهم ١٣١

تاريخ الفراغ من جمعه والنظر فيه ، والله ولي التوفيق ١٣١

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

- ١ - الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي الطبعة الثالثة مزينة ومحقة .
- ٢ - الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة . في علوم الحديث للإمام اللكنوي أيضاً .
- ٣ - إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام اللكنوي أيضاً . الطبعة الثانية .
- ٤ - رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي . نفذت الطبعة الثالثة ، وتصدر الطبعة الرابعة محقة ومزينة كثيراً جداً عما قبلها .
- ٥ - التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري . الطبعة الثالثة .
- ٦ - الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للإمام القرافي .
- ٧ - فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية في الفقه الحنفي للإمام علي القاري المكي .
- ٨ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام محمد بن قيم الجوزية الطبعة الثانية .
- ٩ - المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً ، الطبعة الثانية .
- ١٠ - فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة المحقق الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثري .
- ١١ - مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . وهو بحث جديد في بابهم كل محدث .
- ١٢ - خلاصة تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمحافظ الخزرجي خير كتب الرجال المختصرة بتقديمه واسعة للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثالثة .
- ١٣ - صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة . تصدر الطبعة الثالثة مزينة ومحقة .
- ١٤ - قواعد في علوم الحديث للعلامة الأسعد الفقيه ظفر أحمد العثماني التهانوي .
- ١٥ - كلمات في كشف أباطيل واقتراءات بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
- ١٦ - قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السكي الطبعة الثالثة .
- ١٧ - المتكلمون في الرجال للمحافظ المؤرخ شمس الدين عبد الرحمن السخاوي .
- ١٨ - ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للمحافظ المؤرخ الإمام الذهبي .
- ١٩ - العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة .

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

- ١ - تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً .
- ٢ - ترتيب ثقات العجلي للإمام تقي الدين السبكي والحافظ نور الدين الهيثمي .
- ٣ - نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي . جمعها وحققها الأستاذ أبو غدة .
- ٤ - الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة أيضاً .
- ٥ - فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية للإمام علي القاري المكي : الجزء الثاني .



تطلب هذه الكتب من البلدان : حلب : مكتبة النهضة . حماة : مكتبة الغزالي . بيروت : الشركة المتحدة للتوزيع ، دار الكتاب الجديد . دمشق : دار القلم . بغداد : مكتبة المشي . الكويت : دار القلم . مكة المكرمة : المكتبة الإمدادية بباب العمرة . المدينة المنورة : المكتبة العلمية . الرياض : مكتبة الحرمين ، مكتبة اللواء . طرابلس الغرب : مكتبة النور ، ومن غيرها من المكتبات .

الضمن : ١٢ . ريالاً سعودياً .